المختار من فرائد النقول والأخبار

القسم الثاني

اختيار وتعليق

محمد عوامة





المختار
من
فرائد النقول والأخبار

الطّبعة الثانية
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار البشائر الإسلاميّة
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين وليِّ كلِّ خير ورشاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والعلماء والعُبَّاد، وعلى آله وصحابته، ومن اقتفى أَثَره، واهتدى بهداه.

وبعد: فأقدِّم القسم الثاني من كتاب «من فرائد النقول والأخبار» سائلاً المولى الكريم أن يمنَّ بقبوله والانتفاع به، إنه على كل شيء قدير.

محمد عوامة

من هدي القرآن الكريم

١

من دعاء الآباء للأبناء ووصاياهم

﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ: ربِّ اجْعَلْ هذا بلداً آمناً وارْزُقْ أهلَه مِنَ الثمــراتِ مَنْ آمنَ مِنهــم بــالله واليومِ الآخرِ، قال: ومَن كَفَر فأُمتِّعُه قليـلاً، ثم أَضْطَرُّه إلى عذابِ النارِ، وبِئسَ المصيرُ.

وإذْ يـرفعُ إبــراهيمُ القــواعــدَ من البيــتِ[1] وإسماعيلُ، ربَّنـا تَقَبَّلْ منّـا. إنك أنتَ السميـعُ العليمُ.

ربنـا واجْعَلْنـا مسلمَيْنِ لـكَ ومِن ذُرِّيَّتِنا أمـةً

---

(١) البيت: الكعبة المعظمة، والقواعد: أُسُسُها المبنيَّةُ عليها.

مسلمةً لكَ، وأَرِنَا مناسِكَنا، وتُبْ علينا، إنك أنتَ التوابُ الرحيم.

ربنا وابْعَثْ فيهم رسولاً منهم[1] يَتْلو عليهم آياتِكَ ويُعَلِّمُهمُ الكتابَ والحكمةَ[2] ويُزَكِّيهم، إنك أنت العزيزُ الحكيم.

ومَنْ يَرْغَبُ عن مِلةِ إبراهيمَ إلّا مَن سَفِهَ نَفْسَه؟! ولقدِ اصْطَفَيْناه في الدنيا، وإنه في الآخرة لَمِن الصالحين. إذْ قال له ربه: أَسْلِمْ، قال: أسلمتُ لربِّ العالَمين.

---

(١) هو سيدنا محمد ﷺ، لذلك قال ﷺ عن بدء أمره: «دعوةُ أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى...» رواه أحمد في «مسنده» ٤ : ١٢٧ عن العِرْباض بن سارية، قال الهيثمي ٨: ٢٢٣: «أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد وقد وثقه ابن حبّان» ورواه ٥ : ٢٦٢ عن أبي أُمامة الباهلي، وقال الهيثمي في «المجمع» ٨: ٢٢٢ : «إسناده حسن وله شواهد تقوِّيه».

(٢) الحكمة: هي الحديث النبوي الشريف.

ووصَّى بها[1] إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ: يا بَنِيَّ إن الله اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ، فلا تَمُوتُـنَّ إلاّ وأنتم مسلمون.

أم كنـتُم شُهداءَ إذْ حَضَرَ يعقـوبَ الموتُ إذْ قـال لبنيه: مـا تَعبدونَ مِن بعـدي؟ قالـوا: نعبُد إلَهَك وإلَهَ آبـائِكَ إبـراهيمَ وإسماعيـلَ وإسحاقَ إلَهاً واحداً، ونحن له مسلمون﴾[2].

(١) بكلمة الإخلاص والتوحيد: لا إله إلاّ الله.

(٢) الآيات من سورة البقرة الآية ١٢٦ ـ ١٣٣.

من هدي القرآن الكريم

٢

من دلائل وحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ

﴿قل: الحمدُ لله، وسلامٌ على عباده الذينَ اصْطَفَى، آللَّهُ خيرٌ أمَّا يُشْرِكون؟! أمَّنْ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ وأنْزلَ لكم من السماءِ ماءً فأنْبَتْنا به حَدَائقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، ما كان لكم أنْ تُنْبِتوا شَجَرَها؟ أَإِلَهٌ مع الله؟ بلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلون[1].

أمَّن جعلَ الأرضَ قَراراً، وجَعَلَ خِلالَها أنهاراً، وجَعَلَ لها رواسيَ، وجَعَلَ بين البَحْرينِ[2] حاجزاً؟ أَإِلَه مع الله؟! بل أكثرُهم لا يَعلمون.

---

(١) يشركون ويميلون عن الحق إلى الباطل.

(٢) الماء العَذْب والماء المِلْح لا يختلطان معاً في البحر.

أمَّن يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دَعاه ويَكشِفُ السوءَ، ويجعلُكُم خُلَفاءَ الأرض؟ أإِلَهٌ مع الله؟! قليلاً ما تَذَكَّرون.

أمَّن يَهْدِيكم في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ؟ ومن يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رحمته؟[1] أإِلَه مع الله؟! تعالى الله عما يُشْركون.

أمَّن يَبدأ الخَلْقَ ثم يُعيدُه، ومَنْ يَرزقُكُم من السماء والأرضِ؟ أإِلَه مع الله؟! قل: هاتُوا بُرْهانَكُم إنْ كنتُم صادقين﴾[2].

---

(١) الرحمة هنا: المطر.

(٢) الآيات من سورة النمل: ٥٩ ـ ٦٤.

من هدي القرآن الكريم

٣

من وصايا الآباء للأبناء

﴿وإذْ قال لُقْمانُ لابْنِـه ـ وَهُو يَعِـظُه ـ: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بالله، إن الشِّرْكَ لظُلْمٌ عظيم.

ووصَّيْنـا الإنسانَ بـوالدَيْـه، حَمَلَتْه أُمُّه وَهْنـاً على وَهْن[١]، وفِصـالُه في عـامين[٢]، أَنِ اشْكُرْ لي ولوالدَيْك، إليَّ المصيرُ. وإنْ جـاهَدَاك على أَنْ تُشْرِكَ بي ما ليس لك به عِلْمٌ: فلا تُطِعْهُما، وصاحِبْهما في الـدنيا معـروفاً، واتَّبِـعْ سبيلَ مَنْ

(١) تزداد ضَعفاً على ضَعف.

(٢) أي: فطامُه في سنتين.

أنابَ إليّ[1]، ثم إليَّ مَرْجِعُكم، فأُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون.

يـا بُنيَّ إنها إنْ تَـكُ مِثْقالَ حَبَّـةٍ من خَـرْدَلٍ، فَتَكُنْ في صخــرة أو في السمـواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها الله، إن الله لطيفٌ خبير.

يـا بنيَّ أقمِ الصلاةَ، وأْمُـرْ بالمعـروف، وانْهَ عن المنكـر، واصْبِرْ على مـا أصابـك، إن ذلك من عَزْم الأمورِ[2].

ولا تُصَعِّـرْ[3] خَـدَّكَ للنــاس، ولا تَمْشِ في الأرض مَـرَحـاً[4] إن الله لا يُحبُّ كـلَّ مُختـالٍ فَخُور.

---

(١) أقبَلَ على الله تعالى.

(٢) أي: واجبات الأمور.

(٣) لا تُعرضْ عن الناسِ بوجهك تكبُّراً.

(٤) خُيَلاء.

واقصِدْ في مَشْيِكَ[1]، واغْضُضْ مِن صوتِكَ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوتُ الحمير﴾[2].

(1) تَوَسَّطْ في مِشْيتك، بين التأنِّي والسرعة.

(2) الآيات من سورة لقمان: الآية ١٣ ـ ١٩.

من هدي النبي ﷺ

١

كيف يُقبض العلم

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يَقْبِضُ العلمَ انتزاعاً[١] يَنْتَزِعُه من العِباد، ولكن يَقْبِضُ العلم بقبضِ العلماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتَّخَذَ الناسُ رؤوساً جُهّالاً، فَسُئِلوا فأَفْتَوْا بغيرِ علمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا»[٢].

---

(١) قال الحافظ في «فتح الباري» ١: ٢٠٥: «انتزاعاً: أي: مَحْواً من الصدور، وكان تحديثُ النبي ﷺ بذلك في حجة الوداع».

(٢) الحديث رواه البخاري في «صحيحه» كتاب العلم ـ باب =

. . . .

= كيف يقبض العلم ١ : ٢٠٥ ، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ـ باب ما يُذكر من ذمّ الرأي وتكلُّف القياس ١٧ : ٤٣ ، وأفاض الحافظ في الكلام عليه، ولخَّص ما عنده العلامة المناوي رحمه الله في «فيض القدير» ٢ : ٢٧٣ وزاد عليه كلاماً نفيساً للراغب الأصفهاني رحمه الله.

ومما فيه: «في الحديث: تحذيرٌ من ترئيس الجهلة، وأن الفتوى هي الرئاسة الحقيقية، وذمٌّ من يُقْدِمُ عليها بلا علم، ولا يلزم من بقاء القرآن حينئذ بقاء العلم، لأنه مُسْتَنْبَطٌ منه . . .

قال الراغب: لا شيءَ أوجبُ على السلطان من رعاية أحوال المتصدِّين للرئاسة بالعلم، فمن الإخلال بها ينتشر الشرُّ ويكثر الأشرار، ويقع بين الناس التباغض والتنافر. . . » إلى آخر ما فيه، وهو في كتابه «الذريعة» ص ١٥٨ .

من هدي النبي ﷺ

٢

من وصاياه الجامعة ﷺ

عن أبي ذَرٍّ الغِفاري رضي الله عنه قال:

قلت: يا رسول الله أَوْصِني.

قال: «أُوصيك بتقوى الله، فإنها رأسُ أَمرِك»[١].

قلت: يا رسول الله زِدْني.

قال: «عليك بتلاوةِ القرآنِ، وذِكْرِ الله، فإنَّ ذلك لك نورٌ في السموات، ونورٌ في الأرض».

---

(١) التقوى: عمل ما يَقِيك ويحفظُك من نار الله وعذابه، لذلك وَصَفها النبي ﷺ بأنها رأس الأمر، ومعنى رأس الأمر: مجتمعُ الخير. فالوصية بها وصية بكل خير.

قلت: يا رسول الله زدني.

قال: «لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فإنه يُميتُ القلبَ[1]، ويُذْهِبُ نورَ الوجه»[2].

قلت: يا رسول الله زِدْني.

قال: «عليك بالجهاد، فإنه رَهْبانيَّةُ أُمتي»[3].

قلت: يا رسول الله زِدْني.

قال: «عليك بالصَّمتِ إلا من خير، فإنه مَطْرَدةٌ للشيطان عنك، وعَوْنٌ لك على أمرِ دينك»[4].

---

(١) أي: إن الضحك يُقَسِّي القلب، وقسوة القلب سبب الغفلة عن الله، وليس موت القلب إلاّ الغفلة.

(٢) نور الوجه: بهاؤه ووقاره، فمن أكثر الضحك سقطت هيبته.

(٣) عليك بالجهاد: أي: الْزَمِ الجهاد ولا تتركه. والرَّهْبانيَّة: ما يتكلَّفُه النصارى من أنواع المجاهداتِ والتبتُّلِ، فكذلك الجهاد وبالنسبة للأمة المحمدية، هو رهبانيتها وتفرغها من الدنيا ومشاغلها.

(٤) الطرد: هو الإبعاد، والمعنى هنا: أن الصمت سبب لإبعاد

قلت: يا رسول الله زدني.

قـال: «انْظُرْ إلى مَن هـو دونـك، ولا تنـظُرْ إلى من هو فوقَك[1]، فإنه أَجْدَرُ أن لا تَـزْدَرِيَ نعمةَ الله عندك»[2].

قلت: يا رسول الله زدني.

قال: «صِلْ قَرَابَتَكَ وإن قَطَعوك»[3].

= الشيطان عنك، فتُحفَظَ منه، فتَعانَ على القيـام بأمـور دينك. والصمت يحتـاج إلى مجاهـدة «لأنه سكـوت مع القـدرة على الكـلام، وهذا هـو المأمـور به» كمـا قال المنـاوي في «فيض القدير» ٦: ٢١٠.

(١) وهذا إنما يكون في الأمور الدنيوية، أما في الأمـور الدينيـة: فينبغي أن ينظر إلى من هو فوقه فيها.

(٢) أجـدر: أي أحقُّ وأخلقُ، والمعنى: لكيلا تـزدريَ نعمـةَ الله عليك. والازدراء: الاستخفاف والاحتقار.

(٣) صِلْ: فعل أمر من وَصَل، وهو أمر بصلة الأرحام وإن قطعـوا رحمـك، وفي الحديث: «ليس الـواصلُ بـالمكـافىء، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قُطِعتْ رَحِمُـه وَصَلَها». رواه البخـاري عن ابن عَمْرٍو مرفوعاً ١٠: ٤٢٣ - بشرحه «فتح الباري» -.

قلت: يا رسول الله زدني.

قال: «لا تَخَفْ في الله لَوْمةَ لائم».

قلت: يا رسول الله زدني.

قال: «تُحِبُّ للناس ما تُحبُّ لنفسك».

ثم ضرب بيده على صدري فقال: «يا أبا ذر لا عَقْلَ كالتدبير[1]، ولا وَرَعَ كالكفِّ[2]، ولا حَسَبَ[3] كحُسْنِ الخُلُق»[4].

---

(١) أي: أفضل العقل وأكمله ما يَحملُ الإنسانَ على النظر في عواقب الأمور قبل الوقوع فيها. فالتدبير: بمعنى التدبُّر، كما في «القاموس».

(٢) أي: الورعُ الحقُّ الصحيح ما حَمَل صاحبه على الكفِّ عما يَشْتبه المسلم في حِلِّه وحرمته. لأن الورع: اجتناب الشُّبُهات.

(٣) الحَسَب: مكارمُ الرجل ومآثِرُه. والمعنى: أن الذي يُكْسِب المفاخرَ والمكارمَ للرجل هو حُسْنُ خُلُقه.

(٤) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» ٢: ١٦٨. وفيه إبراهيم بن هشام الغساني، وهو مختلَف فيه، وقال العزيزي=

. . . .

= في «شرحه على الجامع الصغير» ٢ :٨٣: «قال الشيخ: حديث صحيح». وشيخه هذا: هو العلامة محمد حجازي الواعظ المتوفى سنة ١٠٣٥ رحمه الله، وله شرح كبير محقَّق على «الجامع الصغير» يُكثر العزيزيُّ النقلَ عنه، ويُصدِّره بقوله «قال الشيخ».

٣

ثوابُ المُتَحابِّين في الله

عن أبي مسلمٍ الخَوْلانيِّ قال:

دخلتُ مسجدَ حِمصَ، فإذا فيه نَحْوُ مِن ثلاثينَ كَهْلاً[١] من أصحابِ النبيِّ ﷺ، فإذا فيهمْ شابٌّ أَكْحَلُ العَيْنَيْنِ[٢]، بَرَّاقُ الثَّنايا[٣]، ساكتٌ، فإذا امْتَرى القومُ[٤] في شيء أَقبلوا عليه فسأَلوه.

فقلتُ لجليسٍ لي: مَنْ هذا؟.

---

(١) الكهل: مَن جاوز الثلاثين من عمره.

(٢) كَحَلُ العين: سَوَادُ يَعْلو جُفونَها.

(٣) الثنايا: مُقَدَّم الأسنان.

(٤) امترى القوم: شَكُّوا في الأمر.

قال: هذا معاذُ بنُ جَبَلٍ.

فوقعَ له في نفسي حبٌّ، فكنتُ معهم حتى تَفَرَّقوا، ثم هَجَّرْتُ[1] إلى المسجد، فإذا معاذُ بنُ جبل قائمٌ يُصَلِّي إلى ساريةٍ، فسكتَ لا يُكَلِّمني، فصلَّيتُ، ثم جلستُ، فاحْتَبَيْتُ بِرِداءٍ لي[2]، ثم جلسَ، فسكتَ لا يُكَلمني وسكتُّ لا أُكلمُه، ثم قلت:

ـ والله إني لأحبُّك.

قال: فيمَ تُحِبُّني؟.

قلت: في الله تبارك وتعالى.

---

(١) أراد: ذهبت مُبَكِّراً قبل حُلولِ وقت الصلاة.

(٢) الاحْتِباء: أن ينصبَ الإنسانُ ساقَيْهِ ويَضُمَّهما إلى بطنه، وقد يتمكَّن من هذا الضمِّ بواسطةِ ثوب يَجمع به ساقَيْه إلى ظهره وقد يكون ذلك بيديه: يَعْقِدُ بين أصابع كفيه جامعاً ساقيه إلى بطنه. يفعل الرجل ذلك للاستراحة من طول الجلوس وعدمِ تَمَكُّنِه من الاستناد إلى جدارٍ أو ساريةٍ ـ مثلاً ـ. ولذا قيل: العمائمُ تِيْجانُ العربِ، والاحْتِباءُ حِيطانها.

فأَخَذَ بحَبْوَتي فَجَرَّني إليه هُنَيَّة[1] ثم قال:
- أَبْشِـرْ إنْ كنتَ صادقـاً، سمعتُ رسـولَ الله ﷺ يقول:

«المُتَحابّونَ في جَلالي لهمْ منابرُ من نورٍ يَغْبِطُهُمُ[2] النبيُّونَ والشُّهداءُ».

قال - أبو مسلم -: فخرجتُ فلقِيتُ عُبادةَ بنَ الصامِتِ فقلت:

- يا أبا الوليدِ ألَا أُحَدِّثُك بما حَدَّثني معاذُ بنُ جبل في المُتَحابِّين؟.

قال: فأنا أُحَدِّثُكَ عن النبيِّ ﷺ يَرْفَعُه إلى الربِّ عزَّ وجلَّ[3] قال:

---

(١) أي: بلطف.

(٢) الغِبْطة: أن تَتَمنَّى لك مثلَ ما على غيرك من النِّعم دون زوالِها عنه، والحسد: تمني ذلك مع تمني زوالها عنه.

(٣) فهو حديث قدسيٌّ.

«حَقَّتْ[١] محبتي للمُتَحابِّين فيَّ، وحَقَّتْ محبتي للمُتَزاوِرِين فيَّ، وحَقَّتْ محبتي للمُتَباذِلين فيّ، وحقَّتْ محبتي للمُتَواصِلين فيَّ»[٢].

---

(١) أي ثَبَتَتْ محبةُ الله تعالى لمن أحبَّ أخاه المسلمَ حباً خالصاً لوجه الله تعالى دون قَصْدٍ دنيويٍّ، ولمن زار أخاه زيارةً صادقةً كذلك، ولمن بذل المالَ وغيرَه لأخيه المسلم سَمْحاً رَضِيّاً، ولمن وصل رَحِمَه وصداقَتَه لوجه الله تعالى وعلى وجه شرعي يُرْضيه سبحانه.

(٢) رواه الإمام أحمدُ في «مُسْنَده» ٥ : ٢٣٩، وفي مواضع أخرى قبله نحوَه، وروى الترمذيُّ ٧: ١١٩ حديثَ معاذٍ فقط ـ وليس فيه قصتُه مع أبي مسلم ـ وقال: حسن صحيح، وأشار إلى حديث عُبادة بن الصامت.

٤

من بركات سيدنا رسول الله ﷺ

عن حَنْظَلةَ بن حِذْيَمٍ أنـه وَفَد إلى النبي ﷺ مع جَدِّه حَنِيفةَ، فقال حَنيفةُ للنبي ﷺ:

إنَّ لي بَنينَ ذَوِي لِحَىً، ودون ذلـك[1]، وإنَّ ذا أَصغَـرُهم، فادعُ الله لـه. فمسـح ـ النبي ﷺ ـ رأسَـه، وقـال: «بـارِكَ الله فيـك» ـ أو: بُـوْرِكَ فيك ـ.

قال ذَيَّالٌ ـ حفيدُ حنظلةَ ـ: فلقد رأيتُ حَنظلةَ يُؤْتَى بالإنسان الوارمِ وَجْهُهُ، أو البهيمةِ الوارمـةِ

(١) ذوي لحىً: أصحابَ لحىً، كباراً في السنِّ لكل واحد منهم لحية. ودون ذلك: أي: أصغر.

الضَـرْعِ فَيَتْفُلُ[1] على يـديه ويقـول: بسم الله، ويضعُ يدَه على رأسه ويقـول على موضعِ كفِّ رسول الله، فيمسحُه عليه.

قال ذَيَّالٌ: فيذهبُ الوَرَم[2].

---

(١) التَّفْل: نفخٌ للنفَس فيه شيء من الرِّيق.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» ٥: ٦٧ ـ ٦٨، قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤: ٢١٠ و ٩: ٤٠٨: «رجاله ثقات».

من سيرة الصحابة رضي الله عنهم

١

إسلامُ خالدِ بنِ الوليدِ رضي الله عنه وأن العقلَ السليمَ يَهْدي إلى الإسلام

قال خالدُ بنُ الوليد: كان أخي الوليدُ بنُ الوليد قد دخلَ مع النبي ﷺ عُمْرةَ القَضِيَّة[1]، فطَلَبني (أي أخي) فلم يَجِدْني، فكتبَ إليّ كتاباً فإذا فيه:

---

(١) عمرة القضية: هي العمرة التي اعتمرها النبي ﷺ ومعه ألفان من الصحابة، سنة سبع من الهجرة، وذلك بعد العمرة التي قصدها النبي ﷺ ومعه ألف وأربعمائة من الصحابة، فصدَّهم أهل مكة عنها، وكان ذلك سنة ستّ. انظر بحثاً ممتعاً فيها في كتاب «حجة الوداع وجزء عُمُرات النبي ﷺ» ص ٢٨٧ وما بعدها، لشيخنا شيخ الحديث العلامة الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي المدني، دفين البقيع، المتوفَّى غُرَّة شعبان ١٤٠٢، رحمه الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

أمـا بعدُ فإني لم أرَ أعجبَ من ذهابِ رأيـكَ عن الإسلام، وعَقْلُكَ[1]!! ومِثْلُ الإسلامِ جَهِلَه أحـدٌ؟! وقد سـألني رسولُ الله ﷺ عنـك وقال: «أين خالدٌ؟» فقلت: يأتي الله به. فقـال: «مِثْلُه جَهِلَ الإسلامَ؟ ولو كان جَعَل نِكايَتَه[2] وجِدَّه مع المسلمين كـان خيراً لـه، ولَقَدَّمْنـاه على غيـره» فـاسْتَـدْرِكْ يـا أخي مـا قـد فـاتَـك من مَـواطِنَ صالحةٍ.

قـال خـالـد: فلمـا جـاءني كتـابُـه نَشِـطتُ للخـروج، وزادني رغبةً في الإسـلام، وسَـرَّني سُؤَالُ رسولِ الله ﷺ عني.

---

(١) أي: عقلُك معـروفٌ برَجـاحَتِه وسَـداده، فكيف تأخـرتَ عن الدخول في الإسلام؟!.

(٢) أي: لـو وَجَّه قتله وشِـدته إلى الكـافرين، وجعـل ذلـك منـه في صفوف المسلمين: لكان خيراً له.

وأَرَى في المنام كأني في بلادٍ مُجْدِبة، فخرجتُ في بلاد خضراءَ واسعةٍ! فقلتُ: إن هذه لَرُؤْيا. فلما أنْ قَدِمتُ المدينةَ قلت: لأَذْكُرنَّها لأبي بكر رضي الله عنه.

فقال ـ أبو بكر ـ: مَخْرَجُك: الذي هداكَ الله للإسلام. والضيقُ: الذي كنتَ فيه من الشرك.

(ثم ذكر اجتماعَه بعثمانَ بنِ طلحةَ وعمروِ بنِ العاص، وذهابَهم جميعاً إلى النبي ﷺ ليُسْلموا).

قال خالد: فاصْطَحَبْنا جميعاً حتى دَخَلْنا المدينةَ، فأُخْبِرَ بنا رسولُ الله ﷺ، فَسُرَّ بِنا، فلبستُ من صالح ثيابي ثم عَمَدتُ إلى رسول الله ﷺ فَلَقِيَني أخي، فقال:

ـ أَسْرِعْ فإن رسولَ الله ﷺ قد أُخْبِر بك فَسُرَّ بِقُدومِكَ، وهو ينتظركم.

فأَسْرَعْنا المشيَ، فاطَّلَعْتُ عليه، فما زال يتبسَّم إليّ حتى وقفتُ عليه، فسلمتُ عليه بالنُّبوة، فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طَلْقٍ.

فقلت: إني أَشهدُ أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله.

فقال: «تعال».

ثم قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك، قد كنتُ أرى لكَ عقلاً رجوتُ أن لا يُسْلِمَكَ إلاّ إلى خير».

قلت: يا رسول الله إني قد رأيتُ ما كنتُ أَشهدُ من تلك المواطنِ عليك معانداً للحق، فادعُ الله أنْ يَغْفِرَها لي!.

فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يَجُبُّ[1] ما كان قبله».

---

(١) يَهْدِم، كما جاء في رواية أخرى.

قلت: يا رسول الله على ذلك![1].

قال: «اللهم اغفِرْ لخالد بن الوليد كلَّ ما أَوْضَعَ[2] فيه من صدٍّ عن سبيل الله».

قال خالد: وتقدم عثمانُ ـ بن طلحة ـ وعَمْروُ ـ بن العاص ـ رضي الله عنهما فبايعا رسولَ الله ﷺ.[3]

---

(١) أي: ومع أن الإسلام يَهْدِم ما قبله فادْعُ الله لي بالمغفرة.

(٢) كلَّ عملٍ أسرع فيه يريد به إعراضَ الناس عن اعتناق الإسلام.

(٣) من «البداية والنهاية» لابن كثير ٤: ٢٣٩، ونحوه بشيء من الاختصار في «طبقات ابن سعد» ٧: ٣٩٤، وهو متمم للنقص الذي فيه ٤: ٢٥٢.

٢

مُجاهِدانِ من صغار الصحابة

قال عبدُ الرحمن بن عوف رضي الله عنه: بَيْنَا أنا واقِفٌ في الصفِّ يومَ بدرٍ، فنظرتُ عن يميني وشِمالي، فإذا أنا بغلامَيْن من الأنصار حديثةٍ أسنانُهما، تمنَّيْتُ أن أكونَ بين أَضْلَعَ منهما[١]، فَغَمَزني أحَدُهما، فقال:

ـ يا عمِّ هل تعرفُ أبا جهلٍ؟.

قلت: نعم، ما حاجتُك إليه يا ابنَ أخي؟.

قال: أُخْبِرتُ أنه يَسُبُّ رسولَ الله ﷺ،

(١) تمنَّى ـ أول ما رآهما ـ أن يكون بين رجلين أقوى منهما، لأنهما صغيران، لا يُظَن بهما قوةٌ ولا شجاعة.

والذي نفسي بيده لَئِنْ رأيتُه: لا يُفارِقُ سَوادي سَوادَه[1] حتى يموتَ الأعجلُ منا.

فتعجَّبَ لذلك! فغَمَزني الآخَرُ فقال لي مثلَها، فلم أَنْشَبْ[2] أنْ نظرتُ إلى أبي جهلٍ يَجُول في الناس.

قلت: أَلا إنَّ هذا صاحِبُكما الذي سألْتُماني.

فابْتَدَراه[3] بسيفَيْهما، فَضَرَباه حتى قَتَلاه، ثم انْصَرَفا إلى رسول الله ﷺ فأَخْبَراه فقال:

- «أيُّكُما قَتَلَه؟».

قال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قَتَلْتُه.

---

(١) سواد الرجل: شخصه. يريد: أنه لن يفارقَ أبا جهل حتى يَقتلَه، أو يقتله أبو جهل.

(٢) أي: لم أَلْبثْ في مكاني-مدة يسيرة من الزمن، إذْ رأيتُ أبا جهل.

(٣) أَسْرَعا إليه.

فقال: «هل مَسَحْتُما سَيْفَيْكُما»[1].

قالا: لا.

فنظر في السيفَيْن فقال: «كِلاكُما قَتَلَه[2]. سَلَبُه[3] لمعاذِ بنِ عَمرو بنِ الجَمُوحِ».

وكانا معاذَ بنَ عَفْراء، ومعاذَ بنَ عمروِ بنِ الجَمُوح[4].

---

(١) إنما سألهما ﷺ عن ذلك ليرَى ما بَلَغَ الدمُ من سيفَيْهما فيستدلّ به على عُمْق دخولهما في جِسم المقتول، فيحكمَ لمن كان سيفُه أعمقَ بأنه هو القاتل، ليحكم له بالسَّلب.

(٢) قال ﷺ ذلك ـ مع أن القاتل واحد ـ تطييباً لقلب الآخر.

(٣) السَّلبُ: ما يأخذه القاتلُ مما مع المقتول من سلاح وثياب ومركوب ونحو ذلك.

(٤) رواه البخاري: كتاب فَرْض الخُمُس، باب من لم يُخَمِّسِ الأسلابَ، ومن قتل قتيلاً... ٧: ٥٥.

العباس بن عبد المطلب
رضي الله عنه

١ ـ قال يزيدُ بنُ الأصمِّ:

إن العباس عم رسول الله ﷺ كان ممن خرج مع المشركين يوم بدر، فأُسِرَ فيمن أُسِرَ منهم، وكانوا قد شَدُّوا وَثاقه، فسهر النبيُّ ﷺ تلك الليلة، ولم يَنَمْ.

فقال له بعض أصحابه: ما أَسْهَرَكَ يا نبيَّ الله؟.

فقال: «أَسْهَرني أنينُ العباس»[١].

(١) في هذا عظيمُ حبِّ النبي ﷺ لعمه العباس واهتمامِه بشأنه.

فقام رجل من القوم فأرخى من وَثاقه.

فقال رسول الله ﷺ: «مالي لا أسمع أنين العباس؟».

فقال الرجل: أنا أرخيتُ من وَثاقه.

فقال رسول الله ﷺ: «فافْعلْ ذلك بالأسرى كلِّهم»[1].

٢ ـ وكان الذي أَسَرَ العباسَ أبو اليَسَر كعبُ بن عمرو، وكان قصيراً دميماً، وكان العباس رضي الله عنه عظيمَ الخَلْق، طويلَ القامة، من مُقَبِّلي الظُّعُن. يعني أنه كان يُدرك فَمَ الظَّعينة[2] وهي راكبةٌ على البعير وهو على قدميه في الأرض.

وفي «مسند البزار»: قيل للعباس رضي الله عنه: كيف أَسَرَكَ أبو اليَسَر ولو أَخَذْتَه بكفِّك

---

(١) هذا مشهد عظيم من مشاهد عَدْل النبي ﷺ.

(٢) هي: المرأة ما دامت في الهَوْدَج.

لَـوَسِعَتْه؟! فقـال: ما هـو إلا أنْ لقيتُه فـظهر في عيني كالخَنْدَمَة. والخَنْدَمَةُ: جبل بمكة.

وذكــر أبــو عــمــر ـ ابن عــبــد البــر ـ: أن رسول الله ﷺ قال لأبي اليَسَر: «لقد أعانك عليه مَلَكٌ كريم».

٣ ـ وقـال ابن عبـد البــر: رَوَى ابنُ عباسٍ وأنسُ بنُ مالكٍ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنــه كـان إذا قَحِطَ أهــلُ المــدينــة استسقَى بالعباس.

وسبب ذلـك، أن الأرض أجْـدَبَتْ إجــدابـاً شديداً على عهد عمر زمن الرَّمَادة[1] وذلـك سنة سَبْـعَ عَشْرَة، فقـال كعب ـ الأحبـار ـ: يـا أميـر المؤمنين إنَّ بني إسرائيل كانوا إذا أصـابهم مِثْلُ

---

(١) في «القـامـوس»: رَمَـدت الغنم تـرْمِـدُ: هلكت من بَـرْد أو صقيع، ومنه عام الرمادة في أيام عمـر رضي الله عنه، هلكت فيه الناس والأموال.

هذا استسقَوْا بعَصَبة الأنبياء[1]، فقال عمر: هذا عمُّ رسـول الله ﷺ وصِنْـوُ أبيـه[2]، وسيـدُ بني هاشم، فمشى إليه عمر وشكا إليه ما فيـه الناسُ من القَحْط.

ثم قال: ورُوِّينا من وجوه، عن عمر أنه خرج يستسقي وخـرج معه بـالعباس فقـال: اللهم إنـا نتَقَـرَّبُ إليـك بعمِّ نبيِّـك ﷺ ونستشفـعُ بـه، فاحفظْ فيه[3] لنبيـك ﷺ، كما حفـظتَ الغلامَيْن لصـلاحِ أبيهمـا[4]، وأتَـيْنـاك مـستـغفِـريـن ومستشفِعين، ثم أقبل على الناس...

---

(1) العَصَبة: من يَرِثُ الميت وليس بوالد له ولا ولد.

(2) الصِّنْو هنا: الأخ الشقيق.

(3) الحفظ هنا: الرعاية، وتكون هنا باستجابة دعائه.

(4) يشيـر إلى الآية الكـريمة في سـورة الكهف: ﴿وأمـا الجـدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنـزٌ لهما وكـان أبوهما صالحاً..﴾.

ثم قـام العبـاس وعينـاه تَنْضَحَـان[1]، فـطالَ عُمَرَ[2]، ثم قال:

«اللهم أنتَ الـراعي لا تُهْمِلُ[3] الضـالَّة، ولا تَدَعُ [3] الكسير بدار مَضْيَعَة، فقد ضَرَع الصغير، ورقَّ الكبيـر، وارتفعت الشكــوى، وأنت تعلم السرَّ وأخفى.

---

(١) تنضحان: تفوران بالدمع.

(٢) فـطال عمر: أي ظهـر طولـه على طول عمـر. وفي المصدر المنقول عنه: فطالع عمـر، والتصويب من «طبقـات» السبكي ٢: ٣٣٠.

(٣) إعـراب «لا تهمـلُ ولا تـدعُ» بـالـرفـع أولـى من جعـل «لا» دعائية ومـا بعدهـا مجزوم بهـا، ففيها نسبـة الإهمال إلى الله تعـالى حينئذ، وعلى إعـرابهمـا بـالـرفـع يكـون المعنى ثنـاءً على الله تعالى، كأنـه قال: اللهم أنت الـراعي، ومن شأنـك أنك لا تُهملُ الضالةَ ولا تَدَعُ الكسير، ثم أعقبه بالشكوى إليه تعـالى ببيان الحـال والـواقـع: فقـد ضَـرَع الصغيـر ـ أي ذَلَّ وخضع ـ ورقَّ الكبير، أي ضَعُف.

اللهم فـأَغِثْهم بغِيَاثـك من قبلِ أن يَقْنَـطوا، فَيَهْلِكوا، فإنه لا يَيْأَسُ من رَوْحـك [١] إلا القـوم الكافرون. . .

فوالله ما بَرِحوا[٢] حتى اعتلقـوا الجُدُر[٣]، وقَلَّصـوا المآزر[٤]، وطَفِق النـاسُ[٥] بالعبـاس يمسحـون أركـانه[٦]، ويقولـون: هنيئـاً سـاقيَ الحرمين.

---

(١) من رحمتك وفَرَجك.

(٢) ما زالوا عن مكانهم وما غادروه.

(٣) يريد: لزموا السير إلى جانب الجدران ولصقوا بها من شدة محاذاتهم لها.

(٤) رفعوا مآزرهم كيلا تصاب بالطين. وعند السبكي: اعتلقوا الحذاء، أي حملوا أحذيتهم وعلَّقوها على أكتافهم.

(٥) طَفِق بالشيء: أي صار يفعله كثيراً لا يفتر عنه.

(٦) أركانه: أطرافه، وله وجه من حيث المعنى، وعند السبكي في «الطبقات»: أردانه، جمع رُدْن، وهو أصل الكُمِّ.

١

عمر بن عبد العزيز
خليفة متكامل الشخصية

قَـدِمت امرأةٌ من العـراق على عهـدِ عمـرَ بنِ عبد العزيز، فلما صارتْ إلى بابه قالتْ:

ـ هل على أميرِ المؤمنينَ حاجِبٌ؟.

فقالوا: لا، فَلِجِي[1] إنْ أَحببتِ.

فـدخلتِ المرأةُ على فـاطمةَ ـ زوجـةِ عمـرَ ـ وهي جـالسـة في بيتهـا، وفي يـدهـا قُـطنٌ تُعالِجه[2]، فسلَّمتْ فـردَّتْ عليها السـلامَ وقالتْ لها: ادْخُلي.

---

(١) فعل أمر من: وَلَجَ، أي: ادخُلي.

(٢) تعالجه: تصلحه وتعمل به.

فلما جلستِ المرأةُ رَفَعتْ بصرَها فلم تَـرَ في البيتِ شيئاً له بالٌ[1]، فقالتْ: إنمـا جئتُ لأَعْمُرَ بيتي من هذا البيتِ الخرابِ؟!.

فقـالتْ لها فـاطمةُ: إنمـا خَـرَّب هـذا البيتَ عِمارةُ بيوت أمثالِكِ!.

فأقبلَ عمرُ حتى دخل الدارَ، فمال إلى بئرٍ[2] في نـاحية الـدارِ، فانتـزع منها دِلاءً صبَّهـا على طينٍ كان بحضرةِ البيت[3] ـ وهو يُكثِرُ النـظر إلى فاطمةَ.

فقالت لها المـرأة: استَتِري من هـذا الطَّيَّانِ، فإني أراه يُدِيمُ النظرَ إليكِ!.

فقالت: ليس هو بطَيَّانٍ، هو أميرُ المؤمنين!.

---

(١) له بال: له أهمية.

(٢) مال إليه: توجَّه إليه وقَصَده.

(٣) أمام البيت.

ثم أقبل عمرُ، فسلَّم ودَخَل بيتَه، فمالَ إلى مُصَلَّىً كان له في البيت يُصلِّي فيه، فسأل فاطمةَ عن المرأة؟ فقالت: هي هذه.

فأخذَ مِكْتَلاً[1] له فيه شيءٌ من عِنَب، فجعل يَتَخَيَّر لها خيرَه يُناولُها إياه، ثم أقبل عليها فقال:

ـ ما حاجتُكِ؟.

فقالتْ: امرأةٌ من أهل العراق، لي خمسُ بناتٍ كُسُلٌ كُسُدٌ[2]، فجئتكَ أَبتغي حُسْنَ نَظَرِكَ لهنَّ.

فجعل يقول: كُسُلٌ كُسُدٌ، ويبكي. فأخذ الدَّواةَ والقِرْطاسَ وكتب إلى والي العراق فقال ـ للمرأة ـ:

---

(١) زِنْبيلاً.

(٢) جمع، مفردهما: كسول، كسود ـ لا يُرغَب في الزواج منها ـ.

سَمِّي كُبْراهُنَّ، فسَمَّتْها، فَفَرَضَ لها[1]، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن اسمِ الثانيةِ والثالثةِ والرابعةِ، والمرأةُ تَحْمَدُ الله، ففَرَضَ لها، فلما فَرَض للأربع اسْتَفَزَّها الفَرحُ فدعتْ له فَجَزَّته[2]، فرفع يده[3] وقال:

ـ قد كُنَّا نَفْرِضُ لهنَّ حِين كنتِ تُوْلِيْنَ[4] الحمدَ أهلَه، فَمُرِي هؤلاء، الأربعَ يُفِضْنَ[5] على هذه الخامسة.

---

(١) أي: جعل لها قَدْراً معلوماً من المال في بيت مال المسلمين.

(٢) أي: قالت له: جزاك الله خيراً.

(٣) أي: أمسك عن الكتابة.

(٤) تُولين: تُعْطِين. يريد: تَنْسُبين الفَضْلَ إلى الله تعالى فَتَحْمَدِينَه عليه، لأنه تعالى صاحبُ الفضل والمنَّةِ على عباده.

(٥) يعطين. من: أفاض عليه، إذا أعطاه.

فخـرجتْ بـالكتـاب حتى أَتَتْ بـه العــراق، فـدفعتْـه إلى والي العــراق، فلمـا دفعتْ إليــه الكتابَ بكى واشتدَّ بكاؤه، وقال:

ـ رَحِم الله صاحبَ هذا الكتابِ!.

فقالت: أماتَ؟.

قال: نعم. فصاحتْ ووَلْوَلَتْ.

فقال: لا بأس عليكِ، ما كنتُ لأردَّ كتابَه في شيء.

فقضى حاجتَها وفَرَضَ لبناتها[1].

---

(١) من «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم ص: ١٧٧. وقـد قـال الإمـام النـووي رحمـه الله في «تهـذيب الأسمـاء واللغات» ٢: ١٧ في حقِّ هذا الكتاب: «فيـه من النفائس ما لا يُسْتَغْنَى عن معرفته والتأدُّب به».

من سيرة السلف الصالح

٢

الإخلاص

قال عَبْدَةُ بنُ سليمانَ المَرْوَزي:

كُنَّا مع عبدِ الله بنِ المباركِ في بلاد الروم، فصادَفْنا العدوَّ، فلما التقى الصفَّانِ خَرَجَ رجلٌ من العدوِّ، فدعا إلى البِرَازِ[1] فخرج إليه رجلٌ، فقتله، ثم آخرُ، فقتله.

ثم دعا إلى البِراز فخرج إليه ـ رجلٌ من المسلمين ـ فطارده ساعةً فطَعَنَه فقتله. فازدحَمَ إليه الناسُ، فكنتُ فيمن ازدحم إليه، فإذا هو

(١) البراز: المبارزة.

يُلَثِّمُ[١] وجهَه بِكُمِّه، فأخذتُ بطرفِ كُمِّه فمددته[٢]، فإذا هو عبدُ الله بنُ المبارك، فقال:

ـ وأنتَ يا أبا عمروٍ ممن يُشَنِّعُ علينا[٣]!![٤].

---

(١) يغطي أسفلَ وجهه: الفَمَ وما دونه.

(٢) شددته وأزلتُ اللِّثام عنه.

(٣) أي: يشهِّر به ويكشِفُ أمره.

(٤) من «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي ١٠: ١٦٧.

من سيرة السلف الصالح

٣

فضل الصدقة

١ ـ سأل رجلٌ الإمام أبا عبدالرحمن عبدَالله بنَ المبارك فقال له:

ـ يا أبا عبد الرحمن قَرْحَة خَرَجَتْ في ركبتي منذ سبعِ سنين، وقد عالجتُ بأنواعِ العلاجِ، وسألتُ الأطباءَ فلم أنتفعْ به؟!.

فقال ـ له ابن المبارك ـ: اذهبْ فانْظُرْ موضعاً يحتاجُ الناسُ الماءَ، فاحفِرْ هناك بئراً، فإني أرجو أن تَنْبَعَ هناك عينٌ، ويُمْسِكَ عنك الدمُ.

ففعل الرجُل فَبَرَأَ.

٢ ـ قال البيهقي: وفي هذا المعنى حكاية شيخنا الحاكمِ أبي عبد الله رحمه الله.

فإنه قَرِح وجهُه[١] وعالَجَه بأنواع المعالجة، فلم يذهبْ، وبقي فيه قريباً من سَنَة، فسأل الأستاذَ الإمامَ أبا عثمانَ الصابونيَّ أن يدعوَ له في مجلسه يوم الجمعة، فدعا له وأكثر الناسُ التأمين.

فلما كان يومُ الجمعة الأخرى أَلْقَتِ امرأةٌ في المجلس رُقْعةً: بأنها عادت إلى بيتها، واجتهدتْ في الدعاء للحاكم أبي عبد الله تلك الليلةَ، فرأت في منامها رسولَ الله ﷺ كأنه يقول لها: قُولي لأبي عبد الله يوسِّعُ الماءَ على المسلمين.

---

(١) ظهرت عليه قروح (كالدمامل والخُرَاج).

فجيء بالرُّقْعة إلى الحاكم، فأمر بسِقايةٍ[1] بُنيتْ على باب داره، وحين فَرَغوا من بنائها أمر بصبِّ الماء فيها وطَرْحِ الجَمْدِ[2] في الماء، وأَخَذَ الناسُ في الشُّرْب، فما مرَّ عليه أسبوع حتى ظَهَر الشِّفاء، وزالت تلك القُروح، وعاد وجهُه إلى أحسنِ ما كان، وعاش بعد ذلك سنين[3].

---

(١) هو كالذي يعرف في زماننا بـ (السبيل).

(٢) هو الثلج. ويسمى في أيامنا أيضاً بالجليد، يوضع مع الماء ليبرد.

(٣) الخبران من «الترغيب والترهيب» ٢ : ٧٤ للإمام المنذري رحمه الله.

من سيرة السلف الصالح

٤

الصبر

قَدِمَ عُروةُ بن الزُّبَير ـ من المدينة إلى دمشق ـ على الوليد بنِ عبد الملك، ومعه ولدُه محمدُ بنُ عروة، فدخل محمدٌ دارَ الدوابِّ، فضربَتْه دابَّةٌ، فَخَرَّ مَيْتاً[١].

ووقعتْ في رِجْل عروةَ الأَكِلَة، ولم يَدَعْ

---

(١) فلما أُخبر عروة بوفاته أَنشَد.

وكنتُ إذا ما الدهرُ أحدثَ نَكْبةً أقول: سوىً، ما لم يُصِبْنَ صَمِيمي

وقوله: «سوىً»: أي: سواء، يريد: كلُّ الحادثات مثلُ بعضها، إلا الحادثةَ التي تُصيب صميم القلب وتنزل به ـ كهذه النكبة ـ فهي التي لا تُطاق ولا يُصْطَبر لها.

وِرْدَه تلك الليلة ـ وهو قراءةُ رُبُعِ القرآنِ الكريم[1] ـ فقال له الوليد:

اِقْطَعْها... وإلّا أفسدتْ عليك جَسَدَك.

فلما دُعِيَ الجَزَّار لِيقطعَها قالوا له:

ـ نَسْقيك الخمرَ حتى لا تَجِدَ لها ألماً!.

فقال: لا أَستعينُ بحرامِ الله على ما أرجو من عافية!.

قالوا: فنسقِيكَ المُرْقِدَ[2]!.

قال: ما أُحِبُّ أن أُسْلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجدُ ألمَ ذلك فأَحْتَسِبَه!.

ودخلَ عليه قومٌ أَنْكَرَهُمْ قال:

ـ ما هؤلاءِ؟.

---

(١) هذه رواية، وفي رواية أخرى أنه ما تركه إلا هذه الليلة.

(٢) المنوِّم المخدِّر (البنج).

قالوا: يُمْسِكُونَكَ، فإنَّ الألمَ ربما عَزَبَ[1] معه الصبر.

قال: أرجو أنْ أكْفِيَكُم ذلك من نفسي.

فقُطِعَتْ كعبُه بالسكين حتى إذا بلغ العظمَ وُضِع عليها المِنْشارُ فقُطِعَتْ وهو يُهَلِّلُ ويُكَبِّر!!.

ثم إنه أُغْليَ له الزيتُ في مغارف الحديد، فحُسِم به[2] فغُشيَ عليه، فأفاق وهو يَمسحُ العَرَق عن وجهه ويقول: «لقدْ لَقِيْنا من سَفَرنا هذا نَصَباً».

ولما رأى القدمَ بأيديهم دعا بها فقَلَّبَها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليكِ إنه لَيَعلمُ

(١) غاب وبَعُدَ.

(٢) مُنِع سيلانُ الدمِ من موضع القطع.

أنـي مـا مشيتُ بـكِ إلى حـرام ـ أو قـال: معصية ـ! .

* * *

وقـدم ـ الشامَ ـ تلك السنـةَ قـومٌ من بني عَبْس، فيهم رجلٌ ضرير، فسأله الوليدُ عن عينيه؟ فقال:

يـا أميرَ المؤمنين بِتُّ ليلةً في بطن وادٍ، ولا أعلم عَبْسيّاً يزيدُ مالُه على مالي، فطَرَقَنا سيلٌ[1]، فذهبَ بما كان لي من أهلٍ وولدٍ ومالٍ، غيرَ بعيرٍ[2] وصبيٍّ مولودٍ، وكان البعيرُ صَعْباً، فَنَدَّ[3] فوضعتُ الصبيَّ واتَّبَعتُ البعيرَ، فلم أجاوزْ إلّا قليلاً حتى سمعتُ صَيْحة ابني ورأسُه في فمِ الذِّئبِ وهو يأكلُه! .

---

(١) نزل بنا سيلٌ من المطر شديدٌ.

(٢) جَمَل .

(٣) شَردَ بعيداً.

فلحقتُ البعيرَ لأَحبِسَه، فنَفَحَني[1] بِرِجْله على وجهي فحطَّمه وذَهَبَ بِعينيَّ!. فأصبحتُ لا مالَ لي ولا أهلَ ولا ولدَ ولا بصرَ!!.

فقال الوليد: انْطَلِقوا به إلى عروةَ لِيَعلمَ أنَّ في الناس مَنْ هو أعظمُ منه بلاءً!!.

ولما رجع عروةُ إلى المدينةِ قال: اللهم إنه كان لي أطرافٌ أربعةٌ، فأخذتَ واحداً وأبقيتَ لي ثلاثة، فلك الحمدُ، وآيْمُ الله لئن أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن ابتليتَ لطالما عافيتَ[2].

وكان أحسنَ من عَزَّاه[3] إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ طلحةَ[4]، قال له:

---

(١) ضربني.

(٢) كثيراً ما عافيت.

(٣) عزَّاه: صبَّره. أي: أمره بالصبر وحضَّه عليه وسلَّاه عن مصيبته.

(٤) هكذا ورد اسمه في ابن خلكان، وفي «الحلية» ٨: ١٧٩: عيسى بن محمد بن طلحة.

والله مـا بكَ حـاجةٌ إلى المشي ولا أَرَبٌ في السَّعْي، وقد تقدَّمكَ عضوٌ من أعضـائك، وابنٌ من أبنـائك إلى الجنـة، والكلُّ تَبَـعٌ للبعضِ إنْ شـاء الله تعالى، وقـد أبقى اللهُ لنا منـك ما كنّـا فقراءَ إليه، وعنه غيرَ أغنياء: من علمِك ورأيك، نفعك الله وإيانا به، والله وليُّ ثوابِك والضَّمينُ بحسابك.

وعاش بعد قَطْع رجله ثماني سنين[1].

---

(١) من «وَفَيَات الأعيان» لابن خَلِّكان ٣: ٢٥٦ ـ ٢٥٧، مجموعاً من رواية المبرَّد وابن قتيبة.

من وصايا الحكماء

١

وصيةُ لقمانَ لابنه

قال لقمانُ لابنه:

يا بنيَّ! لا تَتَعَلَّمِ العلمَ لتُباهيَ به العلماءَ، وتُباريَ به السُّفهاءَ[1]، وتُمارِيَ[2] به في المجالس. ولا تتركِ العلمَ زهادَةً فيه، ورغبةً في الجَهالة.

إذا رأيتَ قوماً يذكرون الله فاجلِسْ معهم،

---

(١) تُباري: من المباراة، وهي المسابقة. والسفهاء: جمع سفيه، وهو الجاهل، والمراد هنا: لا تسابق بعلمك الجهلاءَ في عَمَلهم وخُلُقهم، وليس المرادُ الجهلاءَ في عِلْمهم، أي: الذين لا يعلمون، إذْ لا يُتَصَوَّرُ مسابقةُ العالِم لهم.

(٢) تماري: تجادل.

فإنْ تكُ عالماً ينفعْـكَ عِلمُك، وإنْ تَـكُ جاهـلاً يزيدوك علماً، ولعلَّ الله أن يَـطَّلِعَ إليهم برحمـةٍ فيصيبَك بها معهم[1].

وإذا رأيتَ قـوماً لا يَـذكـرونَ الله فـلا تَجلِسْ معهم، فإنْ تَكُ عالماً يَنفعْـك علمُك، وإنْ تَـكُ جـاهلاً يَـزيدوكَ جَهْـلاً، ولعـل الله يَـطَّلِعُ إليهم بسَخْطَةٍ فيصيبَك بها معهم[2].

---

(١) كما أخبر ﷺ في آخـر الحديث المتفق عليـه، عن الملائكـة السيَّـارة، أن الله تعالى يقـول لهم: «هُمُ القـومُ لا يَشْقَى بهم جليسهم».

(٢) من «كتاب الزُّهد والرَّقائق» للإمـام عبد الله بن المبـارك ص: ٣٣٨.

٢

وصيةُ محمدِ بنِ سَمُرَةَ بالمُبَادَرةِ إلى العمل الصالح

قال يوسفُ بنُ أَسباطٍ: كتب إليَّ محمدُ بنُ سَمُرَةَ السائحُ بهذه الرسالة:

أَيْ أخي!.

إياكَ وتأميرَ التَّسْويفِ على نفسك(١)، وإمكانَه مِن قلبِك(٢)، فإنه محلُّ الكَلال(٣)، ومَوْئِلُ

(١) التسويف: تأخير الوفاء بالوعد على أمل الوفاء به. والمراد: لا تجعل التسويفَ خُلُقاً لكَ حاكِماً عليك، كما يحكم الأمير على المأمور.

(٢) أي جَعْلَه خُلُقاً متمكِّناً فيك.

(٣) أي: فإن التسويف محل الكلال، وهو الإعياءُ والتعب. يريد: أن تسويف الأمور شأن الإنسان المُتْعَب.

التَّلَفِ[1]، وبـه تُقْطَعُ الآمـالُ، وفيـه تَنْقَطِعُ الآجالُ، فإنك إنْ فعلتَ ذلك أَدَلْتُه[2] من عزمك وهـواك عليه فَعَـلا، واستـرجِعَنَّ مِنْ بـدنِـكَ من السآمة ما قد ولَّى عنك، فعند مـراجعتِه إيـاكَ لا تنتفعُ نفسُك من بدنِك بنافعة.

وبـادِرْ يا أخي! فـإنكَ مبـادَرٌ بك[3]، وأَسْـرِعْ فإنك مُسْرَعٌ بك، وجِدَّ فإن الأمرَ جِدٌّ[4]، وتَيَقَّظْ

---

(١) أي: مرجعُ ومصيرُ الهلاكِ.

(٢) أداله: من الإدالة، وهي الغَلَبة. يريـد: أنك إنْ سـوَّفت فقد جعلتَ للتسويف والتأخير دولة وسلطانـاً على عزمـك، فَغلبك وعلاك.

(٣) أي: أَسْرِعْ إلى العمل والطاعة واستدراكِ عُمُرِك، فإنه مُسْرَعٌ بك، وأجلُكَ إلى نهاية.

(٤) جِدَّ: أي: اجتهدْ في الطاعات، فإن الأمر: يريد بـالأمر هنـا زوال الـدنيا وانقـطاعها بـالمـوت، وإقبـال الآخـرة والـوقـوف للحسـاب والميزان. . . ، إن هـذا الأمر جـدٌّ: أي: حـقيقـة كائنة ولا بدَّ. فلذا عليك بالاجتهاد للنجاح في هذه المواقف.

مِنْ رَقْدَتِكَ، وانْتَبِهْ من غَفْلتك، وتذكَّرْ ما أسلفتَ وقصَّـرتَ، وفرطتَ وجنيت وعَمِلت، فـإنه مُثْبَتٌ مُحْصَىً[1]، فكـأنـك بـالأمـر قَـدْ بَغَتَـك[2]، فـاغْتَبَـطتَ بمـا قـدمتَ، أو نـدِمتَ على مـا فَرَّطتَ[3].

---

(١) أي: مكتوب مجموع عليك.

(٢) نزل بك بَغْتةً وفَجْأةً.

(٣) من «اقتضاء العلمِ العملَ» للخطيب البغدادي آخر خبر فيه.

٣

مِن آدابِ المُجالَسة

قال سيدُنا العباسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ لابنه عبدِ الله رضي الله عنهما:

إني أَرى هذا الرجلَ - يعني عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه - يُقَدِّمُكَ على الأشياخ، فاحفظْ عني خمساً:

- لا تُفْشِيَنَّ له سِرّاً.
- ولا تَغْتَابَنَّ عنده أحداً.
- ولا يُجَرِّبَنَّ عليك كَذِباً.
- ولا تَعْصِيَنَّ له أمراً.
- ولا يَطَّلِعَنَّ منك على خِيانة.

قـال الشَّعْبيُّ: كـلُّ كلمـة من هـذه الخمسِ خيرٌ من ألفٍ[1].

---

(١) من «إحياء علومِ الدين» لـلإمام الغـزالي كتاب آداب الإلفـة والأُخُوَّة والصحبة: الحق الثالث ٢ : ١٥٨.

٤

مَنْ تُخْتَار صُحْبَتُه

أَوصى عَلْقَمةُ العُطَارِديُّ ابنَه ـ وقد حَضَرَتْه الوفاة ـ فقال:

يا بُنيَّ إذا عَرَضَتْ لك إلى صحبةِ الرجالِ حاجةٌ:

ـ فاصحبْ مَن إذا خَدَمْتَه صانَك، وإن صَحِبْتَه زانَك، وإنْ قَعَدَتْ بك مُؤْنَةٌ مانَك[١].

ـ اصحبْ مَن إذا مَدَدْتَ يَدَكَ بخيرٍ مدَّها، وإنْ رأى منك حسنةً عدَّها، وإنْ رأى سيئةً سَدَّها.

---

(١) أي: إنْ نزلتْ بك حاجةٌ قام بكِفايتِكَ فيها.

ـ اصحبْ مَن إذا سألتَه أعـطاك، وإنْ سكتَّ ابتداك[1]، وإن نَزَلتْ بك نازلةٌ واساكَ.

ـ اصحبْ مَن إذا قلتَ صـدَّقَ قـولَـك، وإنْ حاولتَ أمراً آزرك، وإنْ تنازعتُما آثرك.

قـال يحيى بن أكثم: قـال المـأمـون: فـأينَ هذا؟!.

فقيل له: أتدري لِمَ أوصاه بذلك؟.

قال: لا.

قال: لأنه أراد أن لا يصحبَ أحداً[2].

---

(١) أي: ابتدأك، وسهَّل الهمزة لمناسبة: أعطاك، واساك.

(٢) يريد: أن هذه الشروط لا تتوفَّر في إنسـان ليصاحَب، فكـأنه يقول له: لا تصحبْ أحداً أبداً.

والنقل من «إحياء علومِ الدِّين» للإمام الغزالي كتـاب آداب الإلفة والأُخُوَّة والصحبة: بيان الصفات المشروطة فيمن تُخْتار صحبته. ٢: ١٥١.

من أخبار العلم والعلماء

١

المبادرة إلى العمل بالعلم

قال أبو عَمرٍو محمدُ بنُ أبي جعفرٍ أحمدَ بنِ محمد بن حَمْدانَ النَّيْسابوريُّ:

خرجتُ ليلةً من الليالي إلى مسجد أبي عثمانَ سعيدِ بن إسماعيل الحِيْريِّ ـ وكان أبو عثمان إمامَ المسجد، ومن كبار الصالحين ـ فخرج علينا ـ أبو عثمان ـ لصلاة العشاء الآخِرة[1]، وعليه إزارٌ ورداءٌ، فصلَّى بنا، ثم

---

(١) العشاء الآخرة: هي صلاة العشاء التي نعهدها الآن، والآخرة: معناها: الثانية. والعشاء الأولى: هي صلاة المغرب.

دخـل داره. ورجعتُ مع أبي إلى البيت، فقلت لأبي: يا أبةِ، أبو عثمان قد أحرم؟.

فقال: لا، ولكنه هـو ذا يَسْمع مني «المسنـد الصحيـح» الذي خـرَّجتُه على كتـاب مسلم[1]، فإذا سمع بسُنَّة لم يكن استعملها[2] فيما مضى، أحبَّ أن يستعملهـا في يومـه وليلته؛ وإنـه سمع في جُملِة مـا قُـرِىء عليَّ: أن النبي ﷺ صلَّى في إزار ورداء، فـأحبَّ أن يَستعمـلَ تلك السنَّـةَ قبل أن يُصبح[3].

---

(١) يريد: صحيح مسلم. ولأبي جعفر هذا كتابٌ مستخـرجٌ على صحيح مسلم مشهورٌ.

(٢) استعملها: أي: عمل بها.

(٣) الخبر من كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ١: ١٤٥ للخطيب.

٢

مقامُ العلمِ عند الوزراء

قال ابنُ فارسٍ الإمامُ اللغويُّ الشهيرُ:

سمعتُ الأُستاذَ ابنَ العميدِ يقول: ما كنتُ أظنُّ في الدنيا كحَلاوةِ الوِزارة والرِّئاسة التي أنا فيها، حتى شاهدتُ مذاكرةَ الطَّبَرانيِّ وأبي بكرٍ الجِعَابِيِّ بحَضْرتي[1]، وكان الطبرانيُّ يَغلِبُه بكثرة حِفظِه، وكان أبو بكرٍ يَغلِبه بفِطْنته، حتى ارتفعتْ أصواتُهما، إلى أنْ قال الجِعابيُّ:

ـ عندي حديثٌ ليس في الدنيا إلّا عندي!.

فقال الطبرانيُّ: هاتِ.

---

(١) أي: بحضوري وفي مجلسي.

قال الجِعابِيُّ: أخبرنا أبو خليفةَ[1]، أخبرنا سليمانُ بنُ أيوبَ ـ وحدَّث بحديث ـ.

فقال الطبرانيُّ: أنا سليمانُ بنُ أيوبَ، ومني سَمِعه أبو خليفةَ، فاسمعْه مني عالياً[2]. فخَجِلَ الجِعابي.

فَوَدِدْتُ أن الوِزارةَ لم تكنْ، وكنتُ أنا الطبرانيَّ، وفرحتُ كَفَرحه[3].

---

(١) هو الفضل بن الحُبَاب الجُمَحي البصري، المتوفَّى سنة ٣٠٥، وهو شيخٌ للطبراني والجِعابي معاً، لكنه سمع حديثاً من تلميذه الطبراني، فرواه للجعابي، فأراد الجِعابي أن يتعالى على الطبراني به، فوقع، فرواية أبي خليفة عن الطبراني من رواية «الأكابر عن الأصاغر» في اصطلاح المحدثين.

(٢) أي: بإسناد عالٍ، وهذه كلمة اصطلاحية عند المحدثين، والإسناد العالي عندهم: ما كان فيه عدد رجال الإسناد قليلاً من راويه إلى النبي ﷺ.

(٣) من «تَذْكِرة الحُفَّاظ» للذهبي ص: ٩١٥.

من أخبار العلم والعلماء

٣

مقامُ العلماءِ عند الخلفاء

قال يحيى بنُ أَكْثَمَ:

قال ليَ الرشيدُ: ما أَنْبَلُ المراتبِ؟.

قلت: ما أنتَ فيه يا أمير المؤمنين.

قال: فتَعْرِفُ أجلَّ مني؟.

قلت: لا.

قال: لكني أَعرفُه. رجلٌ في حَلْقة يقول: حدثنا فلانٌ، عن فلانٍ، قال قال رسول الله ﷺ.

قلت: يا أميرَ المؤمنين هذا خيرٌ منك وأنتَ ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ ووليُّ عهدِ المسلمين؟!.

قال: نعم، وَيْلك! هذا خيرٌ مني، لأن اسمَه مقترِنٌ باسمِ رسولِ الله ﷺ لا يموتُ أبداً، نحن نموتُ ونَفْنَى، والعلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدهر[1].

(١) من «آداب الإملاء والاستملاء» للحافظ السَّمْعاني ص: ٢٠.

٤

جُنْدُ اللَّيْلِ

كـان نِـظَامُ المُلْكِ أبـو علي الحسنُ بنُ عليٍّ الـطُّوْسِـيُّ وزيــراً لـلسـلطان أَلـبْ أَرْسْــلانَ السَّلْجُوقيِّ، ثم صار من بعـده وزيراً لـولده أبي الفُتوح مَلِك شاه.

وكان نِظامُ المُلك عـالماً بـالحديث والفقـه، ومُكْـرِماً للعلمـاء غـايـةَ الإكـرام. «فلم يكنْ من أوائـل الشـام - من بيت المقـدس - إلى سـائـرِ الشامِ الأعلى ودِيارِ بَكْـرٍ والعِراقَيْن[1] وخُـراسانَ

---

(١) البصرة والكوفة.

بأقطارها[1]، إلى سَمَرْقندَ من وراء نهر جَيْحُونَ، مسيرةَ مائةِ يومٍ: حاملُ عِلمٍ، أو طالبُه، أو متعبِّدٌ أو زاهد في زاويته إلاّ وكرامتُه شاملةٌ له وسابِغةٌ عليه.

وكان الذي يُخْرَجُ من بيوت أمواله في هذه الأبواب ستَّمائةِ ألفِ دِينارٍ في كل سنة»!.

ومرة قال أبو الفتوح ملك شاه لوزيره نظام الملك:

«يا أبتِ[2] بَلَغني أنك تُخرِج من بيوت الأموال كلَّ سنة ستَّمائةِ ألفِ دينارٍ إلى مَن لا يَنفعُنا ولا يُغني عنا؟!.

---

(١) خراسان تطلق على مدن كثيرة، أعظمها: مرو، ونَيْسابور، وبَلْخ، وهَرَاة.

(٢) كان أبو الفتوح يخاطب وزيره نظام الملك بهذا اللقب تكريماً لكبر سنّه، ولتفاني نظام الملك في المحافظة على الدولة ولحفظه وِدَّ أبيه ألب أرسلان.

فبكى نظامُ المُلْك وقال له:

يا بُنيَّ أنا شيخٌ أعجميٌّ لو نُوديَ عليَّ فيمن يَزيد لم أحفظ خمسةَ دنانير[1]! وأنت غلامٌ تركيٌّ لو نُوديَ عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً! وأنتَ مشتغِلٌ بلذّاتك مُنْهَمِكٌ في شَهَواتك، وأكثر ما يَصْعَد إلى الله تعالى معاصِيكَ دونَ طاعتِك.

وجيوشُك الذين تُعِدُّهم للنوائب إذا احتَشَدوا كافحوا عنك بسيفٍ طولُه ذراعان، وقوسٍ لا ينتهي مَرْماه ثلاثمائةِ ذراع، وهم مع ذلك مُستغرِقون في المعاصي والخُمور، والملاهي والنُّدَماء والطُّنْبور!.

وأنا أقمتُ لك جيشاً يُسمى «جيش الليل» إذا نامَتْ جيوشُك ليلاً قامتْ جيوشُ الليل على

(١) يريد: لا يساوي ثمنه خمسة دنانير.

أقـدامهم صُفـوفـاً بين يـديْ ربِّـهم، فـأَرْسَلوا دُموعَهم، وأطلقوا بـالدعـاء ألسنتَهم، ومَدُّوا إلى الله أكفَّهم بالدعاء لك ولجيوشك.

فـأنت وجيوشُـك في خِفـارَتِهم[1] تَعيشـون، وبدعائهم تَبيتون، وببركاتهم تُمْطَرون وتُرْزَقون، تَمْـرُقُ سِهامُهم إلى السمـاء السـابعـة بـالـدعـاء والتضرُّع!.

فبكى أبو الفتوح بكاءً شديداً ثم قال:

شـابـاش يا أبتِ شـابـاش[2]. أَكْثِـرْ من هـذا الجيش»[3].

(١) أي: حمايتهم، ومنه: المخفر، لأنه مكان الحفظ والحماية.

(٢) كلمة فارسية معناها: أحسنت.

(٣) من «سراج الملوك» لأبي بكر الطُّرْطُوشي.

١

القاضي بكارُ بنُ قُتَيبةَ الثَّقَفي

قال أبو حاتِمٍ ابنُ أخي بكارِ بنِ قُتَيبة: قَدِم على عمي رجلٌ من البصرة له علمٌ وزَهادةٌ ونُسْكٌ، فأَكْرَمه وقرَّبَه وأَدْناه، وذَكَر أنه كان معه في المكتب.

ومضتْ به الأيام، فجاء في شهادة ومعه شاهدانِ من شهود مصر، فما قَبِل عمي شهادتَه.

فقلتُ لعمي: هذا رجلٌ زاهدٌ وأنتَ تعرفُه!!.

قال: يا ابنَ أخي ما رَدَدْتُ شهادتَه إلاّ أنا كنّا

صِغـاراً وكنَّا على مـائدةٍ عليهـا أَرُزٌّ وفيه حَلوى، فنَقَبْتُ الأَرُزَّ بـإصْبَعِي، فقـال لي: «أَخَـرَقْتَهـا لتُغْرِقَ أهلَها؟».

فقلت لـه: أَتَهْـزَأُ بكتـاب الله تعـالى على الطعام؟!.

ثم أمسكتُ عن كـلامه مـدةً، وما أَقْـدِرُ على قبوله وأنا أذكُر ذلك منه[1].

---

(١) من «وَفَيَات الأعيان» لابن خَلِكَّان ١ : ٢٨١ . وأقول: فليتَّعِظِ الذين يستشهدون على الموائد بقوله تعالى: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ يريدون من (الآخرة) الفاكهة، و (الأولى) الطعام الأول. وهذا لا يجوز.

١

أبو الحسنِ بُنانُ بنُ محمدٍ الزاهد
ـ الوثيقة الضائعة ـ

قال أبو علي الرُّوْذْباري البغدادي: كنتُ ذاتَ يومٍ عند شيخِنا الجُنَيْدِ في بغدادَ، فجاءه كتابٌ من يوسفَ بنِ الحسنِ يقول فيه:

لا أذاقكَ الله طَعْمَ نفسِك، فإنك إنْ ذُقْتَها لم تَذُقْ بعدها خيراً أبداً!.

قال أبو علي: فجعلتُ أفكر في طَعْم النفْسِ ما هو؟. وجاءني ما لمْ أَرْضَه من الرأي. حتى سمعتُ بخبرِ بُنانٍ رحمه الله مع أحمدَ بنِ طُولُوْنَ أميرِ مصرَ، فهو الذي كان سَبَبَ قدومي إلى هنا، لأرى الشيخَ وأصحَبَه وأنتفعَ به.

فقـدِمتُ إلى مصر، فلمـا لقيتُ الشيخَ لقيتُ رجلاً من تلاميذ شيخِنا الجنيدِ، يتلألأُ فيه نوره، ويَعملُ فيه سِـرُّه، وعلامـةُ الرجـل مِن هؤلاء أن يعمـلَ وجودُه فيمن حـولَه أكثـرَ ممـا يعمـلُ هـو بنفسه[1].

قال: وهَمَمْتُ مَرةً أنْ أسألَ الشيخَ عن خَبَـره مـع ابنِ طُـولـون فَقَـطَعَتْني هَيْبَتُـــه، فقلت ـ في نفسي ـ: أحتـالُ بسؤاله عن كلمـة يـوسفَ بـنِ الحسن: «لا أذاقكَ الله طَعْمَ نفسِك. . .».

وبينما أُهَيِّىءُ في نفسي كلاماً أُجري فيه هذه العبارة، جاء رجلٌ فقال للشيـخ: لي على فلانٍ مـائةُ دينـارٍ، وقد ذهَبَتْ الـوثيقةُ التي كُتِبَ فيهـا الـدَّينُ، وأَخشى أن يُنكِرَ إذا هـو علم بضَياعِهـا

(١) يريد: أن روح العالم الصالح تؤثِّر في أصحـابه ومحبِّيـه أكثر مما يؤثِّر فيهم شخصه وبيانه.

فادعُ الله لي وله: أن يُـظْفِرني بـدَيْني، وأن يُثَبِّتَه على الحق.

فقال له الشيـخ: إني رجلٌ قـد كَبِرتُ، وأنـا أُحِبُّ الحَلْوَى، فـاذهبْ فـاشْتَـرِ رِطْـلاً[1] منهـا وائْتِني به، حتى أدعوَ لك!.

فذهب الرجـل، فاشتـرى الحَلْوى، وَوَضَعَها له البائع في ورقة، فـإذا هي «الوثيقةُ الضائعةُ!» وجاء إلى الشيخ فأخبره، فقال له الشيخ:

خُذِ الحَلوى فأَطْعِمْها صِبيانَـك. لا أَذَاقَنا الله طَعْمَ أنفسِنا فيما نشتهي!.

---

(١) الرِّطلُ عند الحنفية يسـاوي (٤٥٥) غرامـاً، وعند المـذاهب الأخـرى يتراوح بين ٣٢٣ غـراماً و ٣٢٨. انـظر تحريـرها في الصفحة الأخيرة من الجـزء التاسـع من «سنن الترمـذي» طبعة حمص.

٢

أبو الحسنِ بُنَانُ بنُ محمدٍ الزاهدُ
ـ من خاف الله خافه كلُّ شيء ـ

قال أبو علي الرُّوْذْباري:

فلم تَبْقَ حاجةٌ إلى سؤالِ الشيخِ عن خَبَره مع ابن طُوْلُونَ، بَيْدَ أني لم أَنصرفْ حتى لقيتُ أبا جعفرٍ الدِّيْنَوَري فقال لي:

ـ لعلكَ اشْتَفَيْتَ من خبرِ بُنانٍ مع ابنِ طُوْلُون؟ فمِن أجله زعمتَ جئتَ إلى مصر!.

قلت: إنه تَواضَعَ فلم يُخبرني، وهِبْتُه فلم أسألْه.

قال: تعالَ أحدِّثْك الحديثَ.

كـان أحمـدُ بن طُـولُـونَ رجـلاً طـائشَ السيفِ[1]، يَجـورُ ويَعْسِفُ[2]، وقـد أُحْصِي مَن قَتَلَهم صَبْراً[3] أو ماتـوا في سِجنه فكـانوا ثمـانيةَ عَشَرَ ألفاً!.

ولمـا ذهبَ شيخُـك أبـو الحسنِ بُنـانٌ يَعَنِّفُـه ويـأمرُه بـالمعـروف وينهـاه عن المنكـر، طـاشَ عقلُه، فأمر بإلقائه إلى الأسد، وهو الخبرُ الـذي طار في الدنيا حتى بَلَغك في بغداد.

وقـد كنتُ حاضـرَ أمرِهم ذلـك اليومَ، فجِيءَ بالأسد مِن قَصْر خُمَارُوَيْه بنِ أحمدَ بنِ طُـولُونَ، وكـان خُمَارويـه هذا شَغُـوفاً بـالصيـد، لا يكـاد يَسمع بسَبُع في غَيْضَة[4] أو بطن وادٍ إلاّ قَصَدَه،

(١) يريد: يضرب بسيفه من غير تعقل.

(٢) العَسْف: الأخْذ بقوة.

(٣) القتل صبراً: أن يُمْسَكَ الرجل ويُرْمَى بشيء حتى يموت.

(٤) كل مكان يكثُر فيه الشجر.

ومعــه رجــالٌ عليهم لُبُــودٌ[1]، فيــدخلون إلى الأسد، ويتناولونه بأيديهم من غـابِهِ عَنْوَةً[2] وهو سليمٌ! فيضعـونه في قَفَص خشبي يَسَـعُ السبُـعَ وهو قائم.

وكـان الأسد الـذي اختاروه للشيـخ أغلظَ ما عندهم، جَسيماً ضـارياً[3]، عـارِمَ الوَحْشيـة[4]، مُتَـزَيِّل العَضَـل[5]، هَـرَّاسـاً فَـرَّاسـاً[6]، أَهْـرَتَ

---

(١) جمع لِبْد، وهو اللُّبَّادةُ المعـروفة يَضَعُهـا عليه الـرجلُ ليَحفظ نفسَه من مخالب الأسد حين اصطياده.

(٢) قهراً.

(٣) جريئاً. يريد: مفترساً.

(٤) شديد الوحشية، لا يطاق.

(٥) التَّزَيُّل في أصل اللغة: التفرُّق والتميُّز، فلعله يريد أن عَضَلاتِه بارزةٌ متميزةٌ عن سائر أعضائه، لامتـلائهـا وانتفـاخها، وهـذه علامة القوة.

(٦) وصفـان للأسـد يراد منهمـا: شـديـد الافتـراسِ ، والهـرسِ للفريسة.

الشِّـدْقِ[1] يَلوحُ شِدقُـه من سَعته ورَوْعَتِـه كفَتْحة القبر، يُنْبِىءُ أن جوفه مقبرة!.

وأَجلسـوا الشيخَ في قـاعـة، وأَشْـرفـوا عليـه ينـظرون، ثم فَتَحـوا بـابَ القَفَص من أعـلاه، فجَذَبوه فارتفع، وهَجْهَجُوا[2] بالأسد يَزجُـرونه، فانطلقَ يُزَمْجِرُ ويَزْأَرُ[3] زَئيراً تَنْشَقُّ له المَرائِر[4]، ويَتَوهَّم مَن يسمعُه أنه الرعدُ وراءَه الصاعِقة!.

ثم اجتمـع الـوحشُ في نَفْســه واقْشَعَـرَّ، ثم تَمَـطَّى[5] كالمِنْجَنِيق يقـذِف الصخرةَ، فمـا بقيَ

---

(١) أي: واسعَ الشدق، والشدق: باطن الخدّ.

(٢) صاحوا به.

(٣) الزَّئير: صوت الأسد من صدره، والزَّمْجَـرة: تَرديـده وتكراره لهذا الصوت.

(٤) جمع مرارة، وهي القـطعة الصغيـرة الصفراء التي تكـون مع الكبدِ في باطن الإنسان، وتساعـد على هضم الطعـام، وهيَ التي تتأثر بالرُّعب الشديد الهالع.

(٥) تَمَدَّد.

من أَجَلِ الشيخِ إلّا طَرْفةُ عينٍ، ورأيناه[1] - على ذلك - ساكناً مُطْرِقاً[2] لا يَنْظُر إلى الأسد ولا يَحْفِلُ به[3] وما منا إلّا مَن كاد ينهتِكُ حجابُ قلبه من الفَزَع والرُّعْبِ والإشفاق على الرجل.

ولم يَرُعْنا[4] إلّا ذُهولُ الأسدِ عن وَحْشِيَّته، فأَقْعَى[5] على ذَنَبه، ثم لَصِق بالأرض هُنَيْهَة[6] يفترشُ ذِراعيه، ثم نَهَض نَهْضةً أُخرى كأنه غيرُ الأسد، فمشى مُتَرَفِّقاً ثقيلَ الخَطْو، تُسمَع لمفاصله قَعْقَعَةٌ من شِدته وجَسَامته، وأقبل على الشيخ وطَفِق يَحْتَكُّ به ويَلْحَظُه[7] ويَشَمُّه، كما

---

(١) الضمير يعود على الشيخ.

(٢) ساكتاً ناظراً إلى الأرض.

(٣) لا يهتمُّ به.

(٤) لم يُفْزِعْنا ولم يَلْفِتْ انتباهنا.

(٥) جلس.

(٦) زمناً يسيراً.

(٧) ينظر إليه بِلِحاظ عينه، واللحاظ: طرف العين وآخرها.

يصنعُ الكلبُ مع صاحبه الذي يَأْنَسُ به، وكأنه يُعْلِن أن هذه ليست مصاوَلةً[1] بين الرجلِ التقيِّ والأسد، ولكنها مبارزة بين إرادة ابنِ طُولونَ وإرادةِ الله!.

رأى الأسدُ رجلاً هو خوفُ الله، فخاف منه! وكما خرج الشيخُ من ذاته ومعانيها الناقصة، خرج الوحشُ من ذاته ومعانيها الوحشية، فليس في الرجل خوفٌ ولا همٌّ ولا جَزَع ولا تَعلُّقٌ برغبة، ومن ذلك، ليس في الأسد فَتْكٌ ولا ضَرَاوةٌ ولا جوع ولا تعلُّق برغبة.

قال الدِّيْنَوَري: وانْصَرَفْنا عن النظر في السَّبُعِ إلى النظر في وجه الشيخ، فإذا هو ساهِمٌ[2] مفكِّر، ثم رفعوه، وجعل كلٌّ منا يَظُنُّ ظناً في تفكيره.

---

(١) مُوَاثبةَ الخصمِ على خصمه ومقاتلتَه.

(٢) عابس.

فمن قائلٍ: إنه الخوفُ أذهَلَه عن نفسه.

وقائلٍ: إنه الانصرافُ بعقله إلى الموت.

وثالثٍ: يقول: إنه سُكونُ الفِكرةِ يمنعُ الحركةَ عن الجِسمِ فلا يَضطرب.

وزعم جماعةٌ أن هذه حالةٌ من الاستغراق يُسْحَرُ بها الأسدُ!.

وأَكْثَرْنا من ذلك، وتَجارَيْنا فيه[1] حتى سأله ابن طولون:

ـ ما الذي كان في قلبكَ، وفيمَ كنتَ تفكِّر؟.

فقال الشيخ: لم يكنْ عليَّ بأسٌ، وإنما كنتُ أُفكِّر في لُعاب الأسدِ: أهو طاهرٌ أم نجس!![2].

---

(١) أي: أَخَذْنا نتحادثُ، وكلٌّ منا يقول قولاً.

(٢) من «وحي القلم» للرافعي رحمه الله ٣: ٥٠ ـ ٥٨ باختصار شديد. وأصل القصتين في «الحلية» لأبي نعيم ١٠: ٣٢٤، و «تاريخ بغداد» ٧: ١٠١ ـ ١٠٢.

٣

أَمَّنْ يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاه

قال رجل: كنتُ أُكاري[١] على بغل لي من دمشقَ إلى بلد الزَّبَداني[٢]، فركب معي ذاتَ مرةٍ رجلٌ، فَمَرَرْنا على بعضِ الطريقِ عن طريقٍ غيرِ مَسْلوكة، فقال لي:

خُذْ في هذه، فإنها أقربُ.

فقلت: لا خِبْرَةَ لي فيها.

فقال: بل هي أقربُ.

فسلكْناها، فانتهينا إلى مكان وَعْرٍ ووادٍ

---

(١) أكاري: أنقل الناس بالأجرة.

(٢) مَصِيفٌ مشهور من مصايف دمشق.

عميق، وفيه قتلى كثيرة، فقال لي:

ـ أَمْسكْ رأسَ البغل حتى أَنزل.

فنزل وتَشَمَّر وجمع عليه ثيابه، وسلَّ سِكِّيناً معه وقَصَدني، فَفَرَرْتُ من بين يديه، وتَبِعَني، فناشدتُه الله وقلت:

ـ خُذِ البغلَ بما عليه.

فقال: هو لي، وإنما أريد قَتْلُك.

فخوَّفتُه الله والعقوبةَ، فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت:

ـ إن رأيتَ أن تَتْرُكَني حتى أصلِّيَ ركعتين.

فقال: وعَجِّلْ.

فقمتُ أصلِّي، فأُرْتِجَ عليَّ[1] القرآنُ، فلم

---

(١) أُغْلِقَ عليَّ فلم أتذكر شيئاً.

يحضُـرني منه حـرف واحد، فبقيت واقفـاً متحيِّراً وهو يقول: هِيْهِ[1] أُفْرُغْ.

فـأجرى الله على لسـاني قولـه تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطرَّ إذا دَعَاهُ ويكشِفُ السُّوءَ﴾.

فإذا أنا بفارس قد أقبلَ مِن فَم الوادي وبيـده حَرْبةٌ، فرمى بها الرجلَ فما أخطأتْ فؤادَه، فَخَرَّ صريعاً، فتعلَّقْتُ بالفارس وقلت:

ـ بالله مَنْ أنتَ؟ فقال:

ـ أنـا رسولُ الـذي يجيبُ المضـطرَّ إذا دعـاه ويكشف السوء.

قـال: فـأخـذت البغـل والحِمْـل ورجعتُ سالماً[2].

(١) تقال للاستزادة من الشيء، وهنا قالها للاستعجال.

(٢) القصة ذكرهـا ابن كثير في تفسيـر الآية المـذكورة من سـورة النمل ٣: ٣٧١ وعزاها إلى «تاريخ دمشق» لابن عساكر.

٤

نور الدين الشهيد

قال سِبْط ابن الجوزي:

حكى لي نجمُ الدين بن سلام، عن والـده: أن الفِرَنْج لمـا نَزَلتْ على دِمْيـاط(١) ما زال نـورُ الـدين عشـرينَ يـومـاً يَصـومُ ولا يُفـطر إلا على الماء، فضعُف وكاد يَتْلَف، وكان مَهيباً ما يجسُر أحدٌ يخاطبه في ذلك.

فقـال إمـامُـه يحيى: إنـه رأى النبيَّ ﷺ في النـوم يقول: يـا يحيى، بشِّرْ نـورَالدين بِـرَحيـل الفِرَنْج عن دِميـاط. فقلت: يا رسـول الله، ربما

(١) مدينة في مصر.

لا يُصدِّقني. فقال: قل له: بعلامة يومِ حارِم[1] وانْتَبَهَ يحيى.

فلما صلَّى نورالدين الصُّبحَ، وشَرَع يدعو، هابَه ـ يحيى. فقال ـ نورالدين ـ له: يا يحيى تُحَدِّثُني أو أُحَدِّثُكَ؟ فارتعد يحيى وخَرِس. فقال ـ نورالدين ـ: أنا أُحَدِّثُك. رأيتَ النبيَّ ﷺ هذه الليلة وقال لك كذا وكذا. قال: نعم، فبالله يا مولانا ما معنى قوله: بعلامةِ يومِ حارم؟.

فقال: لما التقَيْنا العدوَّ خِفْتُ على الإسلام، فانفردتُ ونَزَلْتُ ومرَّغْتُ وجهي على التراب وقلت: يا سيدي مَنْ محمودٌ في البَيْن[2]، الدينُ

---

(١) منطقة تابعة لمحافظة إدلب في سوريا.

(٢) محمود: هو اسم نورالدين الشهيد. والبَيْن: الوسط، والمراد هنا: لا ذكر له في هذا الموقف ولا أثر، إنما المهم: سلامة الدين وجند المسلمين.

دينُك، والجُنُدُ جُنْدُك، وهذا اليوم افعلْ ما يَليق بكَرمك.

قال: فَنَصَرنا الله عليهم[٤].

---

(١) من «سير أعلام النبلاء» ٢٠ : ٥٣٨ عن «مرآه الزمان» ٨ : ١٩٩ لسبط ابن الجوزي، وانظر القصة وفتح حارم بأزيد مما هنا في «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ٢ : ٤٤ للعلامة الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله، وكان ذلك عام ٥٥٩ هـ.

أوصاف الفقير إلى الله تعالى

الفقير إلى الله تعالى: مَنْ كان خالصاً بكلِّيَّته لله سبحانه، ليس لنفسِه ولا لهواهُ في أحواله حظٌّ ولا نصيب، فهو يريد الله بمراد الله، فمعوَّله على الله، وهِمَّتُه لا تقفُ دون شيء سواه، قد فَني بحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبأمرِه عن هواه، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه، فهو في وادٍ، والناسُ في وادٍ.

خاضعٌ، متواضعٌ، سليمُ القلب، سَلِسُ القِياد للحق، سريعُ القلب إلى ذكر الله، بريءٌ من الدعاوي، لا يدَّعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهدٌ في كل ما سوى الله، راغبٌ في كلِّ

مـا يقرِّب إلى الله، قريبٌ من الناس، أبعـدُ شيء منهم، يـأنسُ بما يستـوحشون منـه، ويستوحشُ مما يأْنَسُون به، مَن جـالَسَه قرَّت عينُـه به، ومَن رآه ذكَّـرتُه رؤيتُـه بالله سبحـانه، قـد حَمَـل كَلَّه ومُؤْنَتَـه عن الناس، واحتمـل أذاهم، وكفَّ أذاه عنهم.

وَصْفُـه: الصـدقُ، والـعفَّـةُ، والإيثـار، والتـواضع، والحِلْم، والـوقار، والاحتمـال، لا يُعاتِب، ولا يُخاصِم، ولا يُطالِب، ولا يَرَى لـه على أحـدٍ حقاً، ولا يـرى له على أحـدٍ فضْلاً، قد رُفع لـه عَلَم الحبِّ فشمَّر إليـه، وناداه داعي الاشتيـاق فـأقبـلَ بكلِّيتـه عليـه، أجـاب مـناديَ المحبـةِ إذْ دعـاه: حيَّ على الفـلاح، ووصـل السُّرى في بَيْداء الـطلب، فَحَمِد عنـد الوصـول سُـرَاه، وإنمـا يَحْمَـدُ القـومُ السُّـرى عنـد

الصباح[1]:

١ ـ فَحَيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها
منــازلُــكَ الأُولى وفيهــا المُخَــيَّمُ

٢ ـ ولكننـا سَبْيُ العـدو، فهـل تـرى
نـعــود إلـى أوطــانــنــا ونُــسَــلَّم

٣ ـ وحيَّ على روضاتِها وخيامِها
وحيَّ على عيش بهــا ليس يُســأم

---

(١) السُّرى: سير عامة الليل، وهو متعب، لكن صاحبه يَسْلُو تَعَبَه حينمـا يُسفر عنـه الفجر وقـد قطعَ مسـافاتٍ طـويلةَ، فحينئـذ يحمدون السُّرَى الذي أتعبهم.

١ ـ حيَّ: أقبـلْ. ومنازلـك الأولى: يـريـد أيـام كـان بنـو آدم جميعـاً في صلب أبيهم آدم عليه السـلام، وهـو في الجنـة، فبهذا الإعتبار كانت الجنة منازلنا الأولى.

٢ ـ العـدو: هـو إبليس الـذي تسبَّب في إخـراج أبينـا آدم من الجنة، ونحن تَبَعٌ له. والعود إلى أوطـاننا: دخـول الجنة يـوم القيامة.

٤ ـ ومن تحتها الأنهار تخفِق دائماً
وطيرُ الأماني فوقها يترنَّم
٥ ـ وقد ذُلِّلتْ منها القُطُوف فمن يُرِدْ
جَناها يَنَلْه كيف شاءَ ويَنْعَم

٦ ـ أقام على أبوابها داعي الهدى
هلُموا إلى دار السعادةِ تغنموا
٧ ـ فيا مسرعين السَّيْرَ بالله ربِّكم
قِفوا بي على تلك الرُّبوعِ وسلِّموا
٨ ـ وقولوا: محبٌّ قاده الشوق نَحْوَكم
قَضَى نَحْبَه فيكم تَعيشوا وتَسْلموا
٩ ـ وحبُّكمُ أصلُ الهُدَى، ومدارُه
عليه، وفوزٌ للمحبِّ ومَغْنَمُ

---

٨ ـ قضى نحبه: أي مات حباً لكم.

١٠ ـ وحَسْبي انتسابي مِن بعيد إليكمُ
وذلــك حظٌّ مــثـلهُ يُـتَـيَـمَّـمُ

١١ ـ إذا قيـل هـذا عبـدُهم ومحبُّهم
تَـهَلَّل بِـشْـراً ضـاحكـاً يـتبـسَّـمُ

١٢ ـ وها هو قد أبدى الضَّرَاعةَ قـائلاً
لكم بلسان الحال، والحـال يُعْلِمُ :

١٣ ـ أحِبَّتَنـا عـطفـاً علينـا فـإننـا
بنـا ظَمـأٌ والمـوردُ العـذبُ أنتمُ

---

١٠ ـ يتيم : يُقْصَد.

١٢ ـ والحال يُعْلِم : أي : يكشف ويفضح واقع صاحبه.

١٣ ـ من «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى ص ٨٨ فما بعد.

دعاءٌ ومناجاةٌ

١ ـ قال الإمامُ أبو المظفَّرِ السَّمْعانيُّ رحمه الله في فاتحة كتابه «الاصْطِلام»[1]:

«اللهم اجعلْ صدري خِزانةَ توحيدِك، ولساني مِفتاحَ تَمجِيدِك، وجَوارِحي خَدَمَ طاعتِك، فإنه لا عِزَّ إلاّ في الذُّلِّ لك، ولا غِنىً إلاّ في الفقرِ إليك، ولا أمنَ إلاّ في الخوفِ منك، ولا قرارَ إلاّ في القَلَق نَحْوَكَ[2]، ولا رَوْحَ إلاّ في النظر إلى وَجْهِك[3]، ولا راحةَ إلاّ في

(١) كتاب في أصول الفقه الشافعي.

(٢) أي: التوجُّه إليك.

(٣) أي: ولا راحة إلا...

الرِّضا بقَسْمك، ولا عيشَ إلّا في جِوارِ المقرَّبين عندك»[1].

* * *

٢ ـ كان الإمام أبو العباسِ أحمدُ بن عطاء الله الإسكندريُّ رضي الله عنه يقول في مناجاته:

«إلَهي أنا الفقيرُ في غِناي، فكيف لا أكونُ فقيراً في فَقْري؟! وأنا الجَهُولُ في عِلْمي، فكيف لا أكون جَهُولاً في جَهْلي؟!.

إلَهي مِنِّي ما يَليقُ بلُؤْمي، ومنكَ ما يليقُ بكرمك، إنْ ظَهَرتِ المحاسنُ مني فبفضلك ولك المِنَّةُ عليَّ، وإنْ ظَهَرتِ المساوىءُ مني فبعَدْلك، ولك الحُجَّةُ عليّ.

إلَهي ما ألطفَكَ بي مع جَهْلي، وما أرحَمَك بي مع قبيحِ فِعلي، وما أقربَك مني، وما

(١) من «طبقات الشافعية» للسُّبْكي ٥: ٣٤٥.

أَبْعدَني عنك، وما أَرْأَفَك بي، فما الذي يَحْجُبُني عنك؟!.

إلَهي عَمِيَتْ عَينٌ لا تَراك عليها رقيباً، وخَسِرتْ صفقةُ عبدٍ لم تجعلْ له من حُبك نصيباً.

إلَهي هذا ذُلِّي ظاهرٌ بين يَدَيْك، وهذا حالي لا يَخْفَى عليك، منكَ أطلُبُ الوصولَ، وبكَ استدِلُّ عليك، فاهْدِني بنورك إليك، وأَقِمْني بصِدْق العُبودية بين يَدَيْك.

بك أسْتَنْصِرُ فانْصُرْني، وعليك أتوكَّلُ فلا تَكِلْني، وإليك أسألُ فلا تَحْرِمني، وفي فضلك أرغبُ فلا تُخَيِّبْني، ولِجَنابِك أَنتسِبُ فلا تُبْعِدْني، وببابك أقِفُ فلا تَطْرُدْني.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ صلاةً تُرضيك

وتُـرضيـه وتَـرضى بهـا عنـا يـا ربَّ العــالمين.
آمين»[1].

(١) من خاتمة «تاج العروس» لابن عطاء الله.

طُرَف ومُلَح

١

وصف الكتاب

قِيل للإمامِ عبدِ الله بنِ المبارك: إنكَ تُكْثِرُ الجلوسَ وَحْدَكَ!. فغضب وقال: أنا وحدي! أنا مع الأنبياءِ والأولياءِ والحكماءِ والنبيِّ ﷺ وأصحابِه، ثم أنشد هذه الأبياتَ ـ وهي لمحمد بن زياد الأعرابي ـ:

ولي جُلَساءُ ما أَمَلُّ حديثَهم
أَلِبَّاءُ مأمونونَ غَيْباً ومَشْهداً(١)

(١) أَلِبَّاءُ: جمع لَبيب، وهو مَن فيه لبٌّ، واللُّبُّ: هو خالص العقل. فاللبيب: مَن فيه عقل خالصٌ سليم، لا يتأثر بنوازع الشهوات ونحوها في تفكيره وما يَصْدرُ عنه من رأى وتصرّف.

إذا ما اجْتَمَعْنا كـان حُسْنُ حدِيثهم
مُعِينــاً على دَفْـع الهُمــومِ مُؤَيِّـداً

يُفِيدُونَنِي مِن علمِهِمْ عِلْمَ ما مضى
وعقــلاً وتــأديبــاً ورأيــاً مُـسَــدَّداً

بــلا رِقْبةٍ أَخْشَى ولا سُـوءِ عِشْـرة
ولا أَتَّقِي منهم لســانـاً ولا يَــدَاً[1]

---

(١) بلا رِقبة: بلا مراقب حاسد يخشاه، ولا تصرُّفٍ سيء يصدر عن هؤلاء الجلساء، ولا يُخافُ من لسانِهم ولا يَدِهم.

والقصة من «المضنون به على غير أهله» لعز الدين الزَّنجاني ص ٤ ـ ٥ بشرحه.

وصف الدفتر

نـظر المأمـونُ ـ الخليفـةُ العبـاسيُّ ـ إلى ابنٍ صغيرٍ له، في يدِه دفترٌ، فقال المأمون: ما هـذا بيدِكَ؟.

فقال: بعضُ ما تُسَجَّلُ به الفِـطْنةُ، ويُنَبِّـهُ من الغَفْلة، ويُؤْنِسُ من الوَحْشة!.

فقـال المأمـون: الحمد لله الـذي رَزَقني مِن ولـدي مَن ينـظرُ بعينِ عَقْله أكثـرَ مـا ينـظرُ بعينِ جسمه وسِنِّه[1].

---

(١) من «الأذكياء» للإمام ابن الجَوْزي ص: ٢٣٥.

القاضي أبو بكر الباقِلّاني

- ١ -

أرسل عضدُ الدولة الإمامَ القاضيَ أبا بكرٍ الباقِلّانيَّ رحمه الله سفيراً إلى مَلِك الروم برسالة يُوصلها إليه، فلما ورد مدينتَه عُرِّف المَلِك خَبَرَه، وبُيِّن له محلُّه من العلم وموضعُه، فتفكَّر الملك في أمره، وعَلِم أنه لا يُكَفِّر[١] له إذا دَخَل عليه، كما جَرَى رَسْمُ الرَّعية[٢]: أن تُقبِّل الأرضَ بين يدي الملك، ثم نَتَجَتْ له الفكرة:

(١) التكفير: الدخول منحنياً انحناءً قريباً من الركوع.

(٢) عادة الرعية.

أنْ يضعَ سريرَه الذي يَجلسُ عليه وراءَ باب لطيف[1] لا يُمكن أحدٌ أن يَدخلَ منه إلاّ راكعاً، ليدخلَ القاضي منه على تلك الحال، فيكون عِوَضاً من تكفيره بين يديه.

فلما وَضَعَ سريره في ذلك الموضع أَمر بإدخالِ القاضي من الباب، فسار حتى وصل إلى المكان فلما رآه تفكَّر فيه، ثم فَطِن بالقصة، فأَدار ظهرَه وحَنَى رأسَه راكعاً ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه وقد استقبل الملكَ هكذا، حتى صار بين يديه، ثم رفع رأسه وَنَصَب ظهره، وأدار وجهه حينئذ إلى الملك. فعَجِب من فِطنته، ووقعتْ له الهيبة في نَفْس الملك[2].

---

(١) صغير قصير.

(٢) سُبق الإمامُ الباقلاني رحمه الله تعالى بهذه الخاطرة، سَبَقه بذلك عَمرُو بنُ أمية الضَّمْري الصحابي الجليل رضي الله =

. . . .

= عنه، وذلك لما بَعَثه النبي ﷺ بكتابه إلى النِّجاشي. كما رَوَى القصة ابنُ أبي شيبة، ونقلها عنه الحافظ ابن طولون في أول «إعلام السائلين» ومحل الشاهد منه ذكره ابن الأثير في «النهاية» مادة ك ف ر، والقصة بتمامها في «سير أعلام النبلاء» للذهبي أيضاً ٣: ١٨٠ ـ ١٨١.

وخبر القاضي الباقلاني في «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر صفحة ٢١٨.

القاضي أبو بكر الباقِلَّانيُّ
- ٢ -

وَدَخل القاضي على ملك الـروم يومـاً، فرأى عنـده بعضَ مَطَارِنَتِـه ورَهَابِيْنـهِ، فقـال القـاضي لراهبٍ مستهزِئاً به:

كيفَ أنت؟ وكيفَ الأهلُ والأولاد؟.

فتعجَّب الروميُّ منه وقال له:

ذَكَر مَن أَرسَلَك في كتاب الرسالة أنك لسـانُ الأمة، ومتقدِّمٌ على علماء المِلَّة، أَمَا علمتَ أنّـا نُنَزِّه هؤلاء عن الأهل والأولاد؟!.

فقال القاضي أبو بكر:

أنتم لا تنزِّهون الله سبحانه وتعالى عن الأهل والأولاد، وتنزِّهونهم، فكأنَّ هؤلاءعندكم أقدسُ وأجلُّ وأعلى من الله سبحانه وتعالى؟!.

فوقعتْ هيبتُه في نفس الرومي[1].

---

(١) جرى نحو هذه القصة لِقُبَاث بن رَزِين المصري المتوفَّى سنة ١٥٦، ذكرها له الحافظ ابن حجر في «التهذيب» ٨: ٣٤٤.

وخبر الإمام الباقلاني في صفحة ٢١٨ ـ ٢١٩ من «تبيين كذب المفتري».

من أساليب تربية الأبناء
١

تعليمهم مراقبة الله تعالى

قال سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريّ:

كنتُ وأنا ابنُ ثلاثِ سنينَ أقومُ بالليل، فأنظر إلى صلاة خالي محمدِ بنِ سَوَّار، فقال لي يوماً:

-ألا تَذْكرُ الله الذي خَلَقك؟.

فقلت: كيف أذكُرُه؟.

قال: قل بقلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاثَ مرات من غير أن تُحَرِّكَ به لسانك: الله معي، الله ناظرٌ إليّ، الله شاهدي.

فقلتُ ذلك ليالي، ثم أَعْلمتُه، فقال: قلْ

ذلك في كلِّ ليلة سبعَ مراتٍ. فقلت ذلك ثم أعلمتُه، فقال: قل ذلك كلَّ ليلةٍ إحدى عَشْرَةَ مرةً، فقلته، فوقع في قلبي حلاوته.

فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظْ ما علَّمتُك ودُمْ عليه إلى أن تدخلَ القبر، فإنه ينفعُك في الدنيا والآخرة. فلم أَزَلْ على ذلك سنين، فوجدتُ لذلك حلاوةً في سِرّي.

ثم قال لي خالي يوماً: يا سهلُ مَن كان الله معه، وناظراً إليه، ومشاهدَه، أَيَعْصيه؟! إياك والمعصيةَ.

فكنتُ أَخْلو بنفسي... فتعلمتُ القرآن وحفظتُه وأنا ابنُ ستِّ سِنينَ أو سبعِ سنينَ[1].

---

(١) من «إحياء علوم الدين» ٣: ٦٤ كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ـ بيان الطريق في رياضة الصبيان.

من أساليب تربية الأبناء

٢

أثر اصطحابهم إلى المسجد

كنتُ في العاشرة من سِنّي وقد جمعتُ القرآن كلَّه حفظاً، وجوَّدتُه بأحكام القراءة، وكان من عادة أبي رحمه الله أن يعتكفَ كلَّ سنةٍ في أحد المساجد عَشْرَةَ الأيامِ الأخيرةِ من شهر رمضان، يدخلُ المسجدَ فلا يَبْرَحُه[1] إلا ليلةَ عيدِ الفطر بعد انقضاء الصوم.

وذهبتُ ليلةً فبِتُّ عند أبي في المسجد، فلما كنّا في جوف الليلِ الأخير أيقظني للسُّحور، ثم

(١) لا يخرج منه ولا يغادره.

أَمَرني فتوضـأتُ لصلاة الفجـر، وأقبل هـو على قراءته، فلمـا كان السَّحَـرُ الأعلى هَتَفَ بالـدعاء المأثور:

«اللهم لـك الحمـدُ أنتَ قَيِّم[1] السمـواتِ والأرض ومَنْ فيهنَّ، ولـك الحمـدُ لـك مُلْكُ السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت نورُ السموات والأرض، ولـك الحمدُ أنت مَلِكُ السمـوات والأرض، ولـك الحمـد أنت الحقُّ، وَوَعْدُكَ الحقُّ. . . »[2].

وأقبـل الناسُ يَنْتـابون المسجـدَ[3]، وَجَلَسنـا

---

(١) بمعنى: قَيُّـوم وهـو ـ كمـا في «النهـايـة» ٤: ١٣٥: «القـائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود، حتى لا يُتَصَوَّرُ وجودُ شيء ولا دوام وجوده إلّا به».

(٢) هذا لفظ الحديث من «صحيح البخاري» ولفـظه في المصدر المنقول منه غير ذلك.

(٣) يدخلونه جماعةً بعد جماعة.

ننتظرُ الصلاةَ، وكانتِ المساجد في ذلك العهدِ تُضاءُ بقناديلِ الزَّيت، تَلُوح كأنها شُقوقٌ مضيئة في الجوِّ، فلا تَكشِفُ الليلَ، ولكنْ تكشفُ أسراره الجميلة.

وكان لها منظرٌ كمنظر النجوم يُتمُّ جمالَ الليل بإلقائه الشُّعَل في أطرافه العليا، وكان الجالسُ في المسجد وقتَ السَّحَر يَشْعر بالحياة كأنها مَخْبُوءة.

لا أنسى أبداً تلك الساعةَ ونحن في جوِّ المسجد، والقناديلُ معلَّقةٌ كالنجوم في مَنَاطها من الفَلَك[1]، والناسُ جالسون عليهم وقارُ أرواحِهم، ومِن حولِ كلِّ إنسانٍ هدوءُ قلبِه.

لا أنسى أبداً تلك الساعةَ وقد انبعثَ في جوِّ

---

(١) الفلك: مدار النجوم.

المسجدِ صوتٌ غَرِدٌ رَخِيم وهو يرتِّلُ هذه الآيات من آخر سورة النحل:

﴿أُدْعُ إلى سبيلِ ربّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادِلْهم بالتي هيَ أَحْسَنُ، إن ربَّك هو أعلمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله، وَهُو أعلمُ بالمهتدين. وإنْ عاقبتُم فعاقِبوا بمثلِ ما عُوْقِبْتم به، ولئنْ صَبَرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين. واصبِرْ وما صَبْرُك إلّا بالله، ولا تَحْزَنْ عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مما يَمْكُرون. إن الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هُمْ مُحْسِنون﴾.

وكان هذا القارىءُ يَمْلِك صوتَه أتمَّ ما يملك ذو الصوت المطرب، فكان يتصرَّف به أحلى مما يتصرف القُمْريّ[1] وهو ينوح في أنغامه، وبلغ في التطريب كلَّ مبلغٍ يقدِرُ عليه القادر،

(١) نوع من الحَمَام.

وما كان إلاّ كالبُلْبل هَـزَّتْه الـطبيعةُ بـأسلوبها في جمال القمر، فاهتزَّ يُجاوبها بـأسلوبه في جمـال التَّغْريد.

وسمعنا القرآن غَضّاً طَرِيـاً كأولِ مـا نَزَل بـه الـوحي، فكان هـذا الصوتُ الجميـلُ يـدور في النفْس كـأنه بعضُ السـرِّ الـذي يـدور في نـظام العـالَم، وكان القلبُ وهـو يتلقَّى الآيـاتِ كَقَلْب الشجرة يتناول الماءَ ويكسوها منه.

واهتزَّ المكان والزمان، كـأنما تجلَّى المتكلِّم سبحـانه وتعـالى في كلامـه، وبدا الفَجْـر كأنـه واقفٌ يستأذنُ الله أنْ يُضيءَ هذا النور!.

وكنا نسمعُ قرآنَ الفجر، وكأنما مُحِيَت الدنيا التي في الخـارج من المسجد وبَـطَلَ بـاطلُهـا، فلم يبقَ على الأرض إلاّ الإنسـانيـةُ الـطاهـرةُ ومكانُ العبادة، وهـذه هي معجزةُ الـرُّوح، متى

كان الإنسان في لـذة روحه مـرتفعاً على طبيعتـه الأرضية.

أما الطفلُ الذي كان فيَّ يومئـذ فكأنمـا دُعي بكـل ذلك ليحمِـلَ هذه الـرسـالـةَ ويؤدِّيَهـا إلى الرجل الذي يجيء فيه مِن بعدُ.

فـأنا في كـل حالـةٍ أَخضـعُ لهـذا الصـوت: ﴿ادعُ إلى سبيـلِ ربِّك﴾ وأنـا في كـل ضـائقـة أخشـعُ لهذا الصـوت: ﴿وَاصْبِرْ ومـا صَبْـرُكَ إلاّ بالله﴾[1].

---

(١) من «وحي القلم» ٣: ٣١ لمصطفى صادق الرافعي باختصـار شديد.

من أخبار الأجواد

١

قيس بن سعد الصحابي

- ١ -

مَرضَ قيسُ بنُ سعدِ بنِ عُبَادَةَ ـ وهو صحابيٌّ ابنُ صحابيٍّ ـ فاستبطأ إخوانَه في العِيادة[1] فسَأل عنهم، فقيل له:

ـ إنهم يَسْتَحْيُون، مما لك عليهم من الدَّيْن!.

فقال: أخزى الله مالاً يمنعُ الإخوان من الزيارة! ثم أَمَر مَن يُنادي: مَن كان لقيسٍ عنده مالٌ فهو منه في حِلٍّ.

فكُسِرتْ عتبةُ بابه بالعَشيّ، لكثرة العُوَّاد.

(١) العيادة: زيادة المريض.

قيس بن سعد الصحابي

- ٢ -

وقد قيل لقيسِ بنِ سعدٍ هذا: هل رأيتَ قطُّ أَسْخَى منك؟.

قال: نعم. نزلْنا بالبادية على امـرأة، فحضر زوجُها، فقالت لـه: إنه نَـزَل بنا ضِيفـانٌ، فجاء بناقةٍ فنَحَـرها، وقـال: شأنَكم. فلمـا كان الغـدُ جاء بأخرى وَنَحرها، وقال: شأنَكم.

فقلنـا: ما أكلْنـا من التي نَحَرْتَ البـارحةَ إلا اليسيرَ!.

فقال: إني لا أُطْعِمُ أضيافي البائت.

فأقمنا عنده أياماً ـ والسماءُ تُمطر ـ وهو يفعلُ كذلك. فلما أردنا الرَّحيل وَضَعْنا مائةَ دينارٍ في بيته وقلْنا للمرأة:

ـ اعتذري لنا منه، ومَضَيْنا.

فلما مَتَع[1] النهار إذا برجل يَصيح خَلْفنا:

قِفُوا أيُّها الرَّكْبُ اللِّئامُ! أَعْطَيتموني ثَمَن القِرَى؟!.

ثم إنه لَحِقَنا وقال:

لَتَأْخُذونَها وإلاّ طَعَنْتُكم بِرُمْحي!.

فأخذناها، وانصرف[2].

---

(١) ارتفع قبل الزوال.

(٢) القصتان من «سراج الملوك» للطُّرْطُوشي ص: ١٩١ و ١٨٨.

من أخبار الأجواد

٣

إيثار

يُروى أن عبدَ الله بنَ جعفرٍ ـ وكان أحدَ الأجواد ـ خرج إلى ضَيْعةٍ له فنزل على نَخيلِ قومٍ، وفيها غلامٌ أسودُ يقومُ عليها، فأُتِيَ بِقُوْته: ثلاثةِ أقراصٍ، ودخل كلبٌ ودنا من الغلامِ، فرمى إليه بقُرصٍ فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكلهما، وعبدُ الله ينظرُ، فقال: يا غلامُ كم قُوْتُك كلَّ يوم؟.

قال: ما رأيتَ.

قال: فلمَ آثرتَ هذا الكلبَ؟.

قـال: ما هي بـأرضِ كلابٍ، وإنـه جاء من مسافةٍ بعيدة جائعاً، فكرهتُ ردَّه.

قال: فما أنتَ صانعُ اليومَ؟.

قال: أَطْوي[1] يومي هذا.

قـال: عبد الله بن جعفـر: أُلَام على السخاءِ وهذا أسخى مني؟!.

فاشترى الحائطَ والغلامَ وما فيه من الآلات، فأعتق الغلامَ، وَوَهَب ذلك كله[2].

---

(١) لا آكل.

(٢) من «سراج الملوك» ص: ١٩١.

فهرس الموضوعات